

إيهاب شتا

نجم
البحر

(رواية)


E-KUTUB

نجم البحر
إيهاب شتا

نجم البحر

(رواية)

إيهاب شتا

إصدارات إي-كتب
لندن، كانون الثاني 2016

Sea Star

By: Ehab Sheta

All Rights Reserved to the Author

Published by E-Kutub.com, 2016

ISBN: 9781780582023

الطبعة الأولى، لندن، كانون الثاني- يناير 2016

المؤلف: إيهاب شتا

الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في إنجلترا برقم: 7513024

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب ألكترونياً أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة إلى المصدر.

أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها إلى المسؤولية القانونية. إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة أخرى غير موقع الناشر (إي-كتب) أو غوغل بوكس، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:

ekutub.info@gmail.com

يمكنك الكتابة إلى المؤلف على العنوان التالي:

shetaehab@gmail.com

اهداء..
إلى ابنتي رقية
.. ومن مثل رقية

الزمان في الرواية تم تحديده - في اسماء الفصول-
للتخيل فقط.
أما المكان فلم يتم تحديده، للتخيل ايضا وفقط!

2019

-1-

عيادة الدكتور الغالي.. بالتأكيد لا نقصد أنه غال في نفسه وليس بيننا مودة خاصة، إن لم يكن هناك نوعٌ من العداء والحقد والإتهام بالاستغلال. لكنه بالطبع غالي السعر أو الأجرة. لا أعلم بالضبط أي الوصفين أكثر لياقة؟ هل الطب يُشترى أم يستأجر؟ ربما هو إيجار جديد لا يدوم أكثر من زيارتين يليهما استئجار يكشف جديد. اللعنة إذن على المثاليات. صارت فكرة أن أجد الطبيب مرتدياً "البالطو" الأبيض مطمئناً على المريض شديدة السخف.. إلا لو اعتبرنا أن البالطو لجزار، وأن الإطمئنان من قبيل المجاملة لا أكثر. الدكتور الغالي أخذ تمييزه من أطباء أكثر رخصاً ذهبنا إليهم. المشكلة تكمن في الوصف. فالرخص لفظة ذات حدين أحياناً توحى بالخسة وأحياناً تغري بالطلب. في الواقع لقد ذهبنا إلى أطباء بداية من سعر قطعة العملة الواحدة المكتوب على تذكرة المستشفى العام ثم تدرجنا عبر المستوصفات والعيادات الخاصة حتى وصلنا إلى هنا. عيادة جديدة في عمارة جديدة في منطقة جديدة كذلك بدورها من ذوات "الأسانسير". لكننا لم نركبه فهو مخصص للسكان. كدت أن أخبر البواب السمج أننا ندفع أكثر من السكان في اليوم بهذا الكشف. لكنه كان سيصبح أكثر سماجة لأن العيادة في الحقيقة في الدور الثاني ولا أريد ركوب الأسانسير إلا "تخليص حق"!

لافتة كبيرة على الباب تُعدد مناقب الدكتور العلمية. دخلت مع أُمي التي ارتفع صوتُ لهاثها من ارتقاء السلم القصير. هل

الطبيب الأعلى سعرا سيكون أوفر حظا وأفضل علاجاً؟ بعيداً عن البعد الايماني الذي يقضي بأن الشفاء من الله، لكنني حقا أرى أنه لا مفر، وأن ما قيل قد قيل. وما يمكن أن يفعل ينتظر أن يفعل دون أن نتحايل عليه. الأمر ببساطة في نوعية العلاج. إنها عملية وينتهي الأمر. أمي حالتها جيدة. العملية متوفر جراحوها. ما المشكلة إذن؟ المشكلة تورية. ظاهرا الأم تخشى العملية. ولكنها باطنا تخشى تكاليف العملية. لذا كان الاتفاق أنه لا تنقل بين الأطباء ثانية. القول الفصل عند هذا الدكتور. وقد كان مشهورا ومزدحما. هل اشتهر أولا فغلى سعره أم أن سعره الغالي جذب إليه الذين ظنوا الغلاء شفاء؟ شغلني السؤال وأنا أتابع المنتظرين قبلي ومن دخل بعدي. كلهم طبقة متوسطة فيما يبدو. لكن هذا أملهم الأخير. إذن أين يُعالج الاغنياء أم أنهم لا يمرضون، أم يملكون دكتورهم "تمليك" بدلا من نظام الإيجار عندنا؟

قبلي أم وابنها. الام متصابية قليلا والولد يضحك بلا توقف. لابد أن الموضوع بسيط. أنظر اليها حسدا فتظنني أنظر لبنطالها الضيق ومكياجها اللافت. فتبدو أكثر تحفظا وتصيح بـ أدهم ابنها أن يهدأ. لا تخافي يا مدام لست مثل الوغد ذي الشارب الرفيع في المقابل الذي لم يرفع عينه عن صدرك المتهدل. ترى هل لك زوج متشاغل أم بدون وتبحثين؟ اخرجني من خواطري النسوية صوت الجرس لتقوم المدام متهادية دخلت لغرفة الطبيب وعينا ذي الشارب غيرت وجهتها إلى مؤخرتها المتهدلة كذلك. إنه وغد حقا.. ذوقيا على الأقل. دورنا القادم اذن. أتشاغل في الموبايل. وأتشاغل باللقاء المنتظر مفكرا في الطبيب وقوله وفعله والنتيجة المنتظرة ونتائجها نفسها. ستكون عملية فمن أين؟ هنا روما! أخيرا كان الدخول. تكييف أقوى من الخارج. نظافة أكثر من الخارج. الدكتور بكامل أناقته، وكأنه في حفل "سواريه" لا عيادة.

ابتسم لأن خاطر البالطو الأبيض لم يتحقق. لقد قرر الطبيب أن يقضي على آمال المرضى الأخيرة السخيفة عن البالطو الأبيض الموحى بالرحمة والعناية. هل صار هذا هو الطبيب إذن، يلبس السواريه ويجلس في التكييف ويقبض الالاف؟ في الواقع كانت تلك صورة ذهبية لم أصدق أنها واقعٌ حتى رأيتها.

-كيف حالك وحال الوالدة؟

-لذا جننا لك. نريد إجابة

-لا، اطمئن ستكون الحاجةٌ بخير أن شاء الله

-ديباجة مُعادة قررت أن أقطعها بوصف الحالة

-أمي تعاني..

-قاطعني وهو ينظر إلى ما في يدي من ملفات..

-فقط أرني الأشعات وريبورتات المستشفى

اذن هو يشفق حتى من السماع. قلبٌ بسرعة وسأل أمي عدة

اسئلة اجابتها بنعم فقال مظفرا

-عملية.

قالها وكأن بيده ذبول الذئاب وفرو الثعالب. وحين قالها ثانية تأكدت أنا وأمي أنه الجواب الصحيح النهائي الذي سينير بالاخضر بعد حذف بقية الاجابات. لكننا هذه المرة لن نحصل على 100 ألف نظير الاجابة الصحيحة بل سندفعها ثمنا للعملية. توقعت أن تسأل أمي وتعيد وتزيد لكنها لم تفعل. إما يأسا وإما هيبة. في الواقع كلما قل سعر الدكتور وزاد احترامه واهتمامه وزاد فضول المريض واستغلاله. والعكس صحيح. الحقيقة تقول عند الأطباء كما يبدو أنه إذا لم تستغل المريض استغلك هو. وهي حقيقة بالفعل. طبقها هذا الدكتور بمهارة. السؤال الأخير وربما الأول الذي سألته بعد التأكد من وجوب العملية عن كنه المستشفيات التي تقوم بالعملية.

-الكثير من المستشفيات الدولية والاستثمارية، والمستشفيات العسكرية كذلك!

جلسنا على "البورتو". ذلك الاسم الذي انتشر ليوحي بالرفاهية والاسترخاء، وتحول كأي شيء هنا إلى شيء ممل مكرر مبتذل. لكن البورتو في ميدان الشريف مختلف، فهو أقرب فعلا إلى بحر، هواؤه الدخان وسطله الحشيش. لكن ذلك في المساء. أما النهار فله عينان كما يقول المعلم صلاح، ابن المعلم توفيق الذي لم أره إلا صغيرا حين كان يطارنا إذا لعبنا أمام ناصية المقهى الجانبية، قبل أن تنقلب الناصية إلى محل مستقل للاكسسوارات، وقبل أن يتوفى المعلم وأكبر أنا وأقراني. طافت بي تلكم الذكريات جالسا مع عبد الله يدخن سيجارة ويشرب الليمون ويتكلم.

عادة ما كنت أكره الذهاب إلى هذا المكان فضلا عن الجلوس فيه. ذكرياتي لا تتركني وشأني. جامع الحي الكبير قبالي تشهد مأذنته على ماض لا زلت أذكره. والشارع الذي شهد خطوات الصبا الذي لا أدري أكانت أحسن أم أسوأ. لكن لا خيار لي فهنا أجالس صاحبي -النزهي- وإن كان تنزهه عن واقع وحقيقة. فهو غني، أو بمعنى أدق، ذو أب غني. وهي صفة خلقية ليست مكتسبة لا ألوم نفسي عليها كباقي خيارات حياتي. قد ألوم نفسي فقط على مصادقة ذلك الوغد الذي لا يكف عن إثارة غيظي لكنه صديقي الذي دام، فقد كنت أفقد الأصدقاء في ظروف غامضة. ومشكلة صديقي هذا.. عدم منطقته؛ هوأئته.

لكنني أتحملة حين يقول مثلا وهو يناقش مستقبله بعد انتهاء سنته الجامعية الاخيرة.

-مختار إن كنت سأفتتح صيدلية أم لا.

الجملة في ذاتها عادية. الصيدلية مشروع مربح وستعوض تكاليفها بسرعة، والتي إن كانت كثيرة فأبوه يستطيع تحملها، لكن الأزمة في شخص المتحدث. فهو ليس خريج كلية الصيدلة بل زميل في كلية العلوم. إذن هو ذلك الشخص الغير منطقي الذي يصحو صباحا، يفطر على عشرة أحلام ويتعشى بأن يعيد أكلهم من ذاكرته مساء. منذ أيام فاتحني بخصوص مشروع معمل التحاليل الذي ينوي افتتاحه. من الجميل أن يفتتح خريجو كلية العلوم قسم الكيمياء معملا للتحاليل، لكن قسم الفيزياء لم يفعل ذلك؟ بررها بقوله:

- لكننا درسنا كيمياء كذلك.

ثم في النهاية يفسر أحلامه جميعا برغبته الأولية بدراسة الطب. وهو تبرير أقبح من ذنب لأنني أذكره في السنة الأولى وهو يتمنى التحويل إلى كلية الهندسة! ربما لتناقضه أحبه. لا أدري. فاقد الشيء يبحث عنه وأنا أفقد الخيال وهو لا يملك غيره. لذا أعتبره صديقا حتميا كحتمية الأهل. على البورتو جلسنا بعدما علمنا أن لا كلية اليوم.

- اليوم انتهى بدري، بدري.

-ألم تمل الجامعة بعد. إنها خمس سنوات مرت. إنها أطول من مدة الرئاسة نفسها.

ابتسمت متذكرا الصراع الدستوري الحالي في البلاد حول الأمر. قلت مفسرا:

-لست أدري أين ساذهب بدونها

-لأنك "فقر"

أذكر طلباته الملحة للخروج والسهر لكنني كنت أتعلل له
وأتعلل لنفسي.. فلا هو اقتنع ولا أنا..

-اليوم انتهى لي وانت؟

-أنا جئت إلى ميدانك الشريف

-آآآآه

قلتها وقد فهمت زيارته الكريمة. اليه من رواد الحديقة سيئة
السمعة..

-يا رجل إتق الله. رمضان على الأبواب

-ههههههه. أرأيت. إنها فرصة

-هل ستمتنع في رمضان؟

-أحل لكم ليلة الصيام

ضحكت طويلا. يحل الحرام في رمضان ويستدل بالقرآن.
أعرف أنه يمزح لكنني أعرف أن جزءا منه يصدق. لحظات من
الصمت ثم بادر هو:

-مالك يا محمود. ماذا يشغل بالك واهتمامك؟

قالها الأحمق وكأنه لا يدري شيئا عن حالي. فبالإضافة لحالي
كشاب يكاد ينهي دراسته ويبدأ مشوار مستقبله المظلم. كنت أحمل
مرثية أُمي. حكيبتها له مرات فينسى أو لا يهتم. أعيد التذكير
فيدعي الاهتمام ثم ينسى. هذه المرة بدا أكثر اهتماما. ربما لأنه
لا يجد شيئا آخر يفعله. وأنا أيضا حكيبت له آخر التطورات.

-يفترض أن تتم تلك العمليات على نفقة الدولة..

قالها بذكاء.. ذكرته بمحاولاتي في المستشفيات والجامعات
فكان الرد، دور طويل ونقص في المواد اللازمة للعملية.

-شاطرين يعالجوا من لا يحتاج.

قالها متظاهرا بالغیظ أما أنا فلم يعد عندي مخزون لذلك.

سألني أن كانت لأُمي نقابة تكفلها.

-أمي ست بيت
-يااااه هل مازال هنالك ستات بيوت؟
الحقيقة أني أشاركه استغرابه. أمي تنتمي إلى عصر سحيق.
فالنساء اليوم تعمل والرجال عاطلون.
-حتى النقابات غير مضمونة. أتعرف من المضمون حقا؟
قلت بلا فضول حقيقي
-من؟
-الجيش. الضباط يتم علاجهم بالكامل على نفقة الجيش. لي
قريب مهم هناك.
قريب مهم في الجيش. لن يكف عن اثاره حقدي. كان معه
حق. لازالت كلمات الطبيب الشهير ترن في اذني. المستشفيات
العسكرية. لكنها لها تكلفتها ما لم تكن...
-محظوظ أنت يا عم. لن تجند في الجيش.
قالها مشيرا إلى حالتي الإجتماعية التي قد تعفيني من التجنيد
الاجباري مع أنه هو نفسه سيعفى منه لأنه وحيد أبويه. ستكون
ميزة له لكن ما الميزة لي أن أعفى من التجنيد وأجلس في البيت.
ما جدوى السلامة وأمي مريضة؟ للحظة اشتعلت في رأسي فكرة
قطعتها إشارة عبد الله إلى القادم من بعيد، من خلف جامع
الشريف.
كانت ندى..

أمام المبنى العسكري ترددت. الخوف الأولي من الفرق
النظامية جدير بالتأمل. هل لسلاحهم، أم للغتهم الحازمة، أم
لباسهم الموحد الموحى باختلافهم عنا وكأنهم كائنات مختلفة. أحد
الكائنات المدنية رأيته يدخل أمامي فتشجعت. أتمشى في المبنى

لأجده كأي مبني. فقط العاملون يرتدون الزي المختلف، لكن هذا لا يعني أنهم مختلفون. ففي الحقيقة تلك قشرة كقشرة السوداني أو للدقة، قشرة مضافة للقشرة عمدا. هم مدنيون مجندون. هنا أتذكر أنني هنا لأصبح واحدا منهم وتضاف لي القشرة المرغوبة. ربما ستكون أسمك. فهي قشرة ضابط. لكني الآن ذاهب للقاء ضابط من ذوي البشرة السمكية. لا قشرة إذن بل بشرة متصلة بالعظام والعضلات. رجل عسكري كبير. لم ير المدنية إلا بعيون المراهقة فصارت مثلها ذكريات مضحكة. هذا العميد أشرف الذي شفع للقائه صديقي الطائش. ولقاؤه كان بغرض أن يشفع هو لدخولي الجيش. ليس هذا هو المهم. المهم أن أدخله كضابط لذا كان أول ما قال:

-غريب. نتشفع لكم للخروج، وأنت تريد الدخول.
يعيد الفكرة إلى ذهني نحن وأنتم. لكن الجندي الذي يدخل ويحضر له العصير يذكرني بالجنس الثالث المكتشف. السوداني المغطى بقشرة مقرمشة. يرشف من العصير ويسألني عما أطلب. هذا يحبطني قليلا ويزري من الصورة الذهنية لدي. لم أتوقع بالطبع مدافع ورشاشات بالداخل حل مكانها قول اللواء وهو يتلذذ بالمانجو:

-الجيش شرف وواجب.
يتابع شيئا في الجورنال في يده. جورنال يقول ما يعتقد ويجعله يعتقد ما يقوله. حلقة مفرغة. لكنه فجأة يلتفت ويقول وقد صار ثرثارا:

-لكننا نكافئ من قضى خدمته أو نحبه معنا باعفاء أولاده من الدخول في الجيش!
لا أجد ردا. لكنه يبتسم.
-لماذا تريد أن تزامننا؟

يقال أن ذلك أول أسئلة "كشف الهيئة". كدت أذكره أنت لست "كشف الهيئة" أنت واسطة لدخولها واجتيازها. هذا السؤال ليس في "المقرر". هذا الإمتحان أعلى من قدرات الطالب المتوسط. هي منظومة فكرية واحدة تختلف باختلاف الوزارات وليس الأشخاص. لكني تراجعته. وتراجعت كذلك عن العكس. الاجابة الصحيحة. كنت أرغب أن تتم الأمور بشكل أكثر سلاسة. أنا لا أتسول. أمي ليست جسدا مسجي أمام جامع. أنا شاب جاء تجنيده الاجباري فإما لحسي الوطني قررت المشاركة، وإما لغموض مستقبلي قررت المغامرة لأحظى بمستقبل مضمون. ليس الا. وحين صارحت اللواء بسببي الأول كاد أن يضحك ضحكة خليعة تخبرني بحماقة ما أقول ووعي من يسمع فانتقلت إلى الموجة الثانية من الارسال. فاحسست برضا العميد عن الحجة المقنعة. مستقبل الجيش ربما كان أفضل من مستقبل العلم.

-هكذا أنت تصدق وتفهم. سأجعلك مثلي تماما في يوم من الأيام. هل يرضيك هذا؟

وفي تلك اللحظة دخل المجند أياه بعصير مانجو آخر لي أنا هذه المرة!

-2-

لماذا تكون دائما اللحظات الأخيرة هي الأكثر صعوبة؟ هل لأنها ناتج تراكم كل لحظات الفكر والقلق السابقة؟ هل لأن فيها تزداد المنافسة ويحمى الوطيس؟ هل لأنها أقرب إلى خط النهاية حيث يتوقف العمل وتنتظر النتيجة، أو بمعنى آخر قد تضيع كل لحظات الجهد السابقة وبالتالي تفسد النتيجة وتفسد كل اللحظات التالية؟ على مدى ست سنوات ويزيد وهي المدة الأطول لدراسة الطب. كرسيت همّي لا كي أتفوق بل كي أحافظ على التفوق. وسط كل المتغيرات حاولت إلا أتعير. وسط كل الرياح حاولت إلا تجرفني. من السنة الأولى أوقفني العوارض وكدت أن أفشل لولا أن انتشلني الله برحمته. والسنة التالية كانت البلاد جميعها مزلزلة بينما أنا أصم أذني عن العاصفة. والسنوات التالية كانت الأزمة في بيتنا وأزمة أبي التي لم يجد لها حتى الآن حلا. لكني صمدت وصبرت، "ومَنْ صبر نال" على قول المثل الشهير. لكن ماذا سأنال؟ الكل يظن أن نوالي التفوق في حد ذاته. ربما وظيفة محترمة أو احترام الآخرين أو اشباع غريزة الفوز والتنافس التي لولاها لما خطا العالم شبرا. لكنهم واهمون حقاً. فالحقيقة أنني أفعل ذلك لسبب لا أعرفه، بناءً على أمر طلب مني دون تبرير وقد قررت تنفيذه دون سؤال. اعتبرته مقدسا. والمقدس لا يسأل عن الحكمة. فقط تؤمن أنها موجودة. أي نعم، ظل السؤال يشغل بالي لفترة، لكنه ظل يخفت ويخفت حتى كدت أنساه هو والاجابة المنشودة. كل تلك الخواطر دارت بذهني وأنا أدخل من باب الكلية

ربما للمرة الأخيرة هذا العام للامتحان الأخير. فحتى النتيجة
ساحصل عليها الكترونيا. دخلت متبعا النصيحة القائلة بعدم
التفكير في مادة الإمتحان قبل الامتحان. أي نعم، هذا الأمر
مخالف لكل قصص مراجعات الطريق والسلم التي يقول
أصحابها إنها أتت بنصف الإمتحان. حسنا أظن أنها أضاعت
كذلك النصف الآخر. من بعيد وكالعادة أجد سلمى واقفة أمام باب
مبنى الإمتحانات. لابد أنها تراجع مراجعتها الأخيرة فهي من
أنصار الرأي بالمراجعة في السلاالم. لكن عجا. لم تكن وحدها.
ولم يكن في يدها كتاب. بل على مقربة منها مجموعة من عشرين
فردا تقريبا يتناقشون بحدة. كان الوقت مبكرا قبل الإمتحان ولا
يأتي إلا القليل ويتجمعون بعيدا باستثناء سلمى بغرض المذاكرة
وباستثنائي بغرض التركيز. إذن من هؤلاء؟ حين اقتربت
اكتشفت. لمحت متزعم الجمع. مؤمن! لم أكن رأيته منذ شهور.
لازمت منزلي للدراسة والمراجعة بينما هو -اعلم- لازم سلاالم
الكلية. هكذا عهدته منذ رأيته قبل ما يقرب من ست سنوات. وكلما
رأيته عاودتني غصة اللقاء الأول والفراق الأول كذلك. لم يتغير
كثيرا وإن تغير كل ما حوله ومن حوله. كل ما حوله من أفكار
وآمال وأفعال وكل من حوله من أشخاص تركوا الفكرة وسبقوه
عبر سنوات الكلية. تركوها قهرا أو عمدا بينما هو في نفس لحظة
افلات المنتمين منه يضم آخرين. ذكرني هذا بمدرّب فريق
يجتذب لاعبين جددا في فريقه قبل أن يشتريهم الآخرون بينما هو
يجتذب مجموعة أخرى سرعان ما تنقلت منه وهكذا. هل كان
سعيدا؟ هل كان حزينا وكيف لم يتغير؟ راودتني تلكم الاسئلة ولم
أفّق منها إلا حين لاحظت نظرة عينيه الحادة اليّ. نظرة مدرب
للاعب اكتشفه ولكن سرعان ما هرب منه. تجاهلته للحظة
واتجهت لسلمى.

-ماذا هناك؟

-يغلقون قاعة الامتحانات بحجة عدم شرعية استفتاء الدستور!
-لست أفهم.

بالفعل لم أفهم. ما العلاقة؟ ما علاقة الإمتحان الأخير للسنة الأخيرة بدستور يقولون إنه سيُطبخ؟ كان هذا أسلوبا جديدا قديما. إعتصام. مظاهرة. منذ متى لم أسمع تلك الكلمات؟ ربما منذ عهدي مع مؤمن. هم يظنون أن تلك السياسة فقط لا يعلمون أنواعا أخرى أعلمها أنا.

-ما علاقة هذا الإعتصام بالدستور وما دخلنا نحن بالسياسة؟
قلتها لأحد الواقفين ببراءة متعمدة. بالطبع ليس مؤمن لكنه كان من رد عليّ بقوله:
-أهلا يا رامي.

خطوات قصيرة ومتمهلة قربته. يده التي مدها صافحتني ببرود اعتبره مني وليس منه فقال:
-لقد كنا زملاء. أنسييت؟

في الواقع أذكر، وإن كنت لا أذكر متى انتهى أمر الزمالة برسوب متكرر له. هل في السنة الثانية أم الثالثة؟
-كنا أصدقاء كذلك.

قلتها مستعيدا خيوط الود وإن كنت أذكر هذه المرة متى انتهت صداقتنا. من السنة الأولى.
-لقد فات عُمر.
-بالفعل. لذا.

-بدون تضییع للوقت. ما جدوى ما تفعلون؟
-حرية التعبير مكفولة.
قالها ثم نظر لمن حوله مردفا بسخرية
-حتى في الدستور الجديد؟

ضحكوا بينما أصابني الغضب.
-بأي منطق تتحدث؟ لو كانت حرية التعبير مكفولة لما وقفت
أنت هنا مختبئاً بأسوار الجامعة.
-إذن بأي منطق تمنعني؟
-أنت من تمنعنا من أداء شيء ربما يفيد مقابل وهم لن يفيد.
-الإمتحان يفيد؟ الحرية وهم؟ وما جدوى العلم إذا تحكم به
الجهل. ما جدوى العيش إذا كان مرا؟ ما جدوى الحياة بدون حلم؟
أصاب في داخلي شيئاً هذا المراهق. كلماته كسهام في قلوب
الواقفين. ربما أعيش أنا كذلك في سبيلها لكن كيف؟ هذا ما نحاوله
جميعاً.

سكت وسكنت خاصة حين أتى من خلفنا بقية الممتحنين طلاب
دفعتي الكرام. وتعالّت الأصوات متسائلة عما يجري. ارتفع
التهافت بسقوط الدستور وواضعي الدستور. ذكرى ومضت في
عقلي وحينها ارتجفت وحينها قلت بصوت عال كي يسمعني:
-هل تذكر عمار؟!

ظللت أياماً أتذكر ردة فعل عينيهِ. وكل يوم أفسرها تفسيراً
جديداً. هل كان ندماً؟ ربما. أقولها ذات يوم وفي اليوم التالي أقول
ربما كان عناداً واصراراً. وحينما اشرب الشاي أغير رأبي. لقد
كان مغتاضاً من مقارنتي التي ظنّها ظالمة. لكن أين الظلم. لم أقل
إنه عمار بل موقفه. موقف عمار. فهل يكون مصيره كمصيره.
تفسير رابع لنظرتِهِ. ربما كان ضيقاً وخوفاً من المصير. هل لهذا
فضوا وقفنهم سريعاً، أم هو تهديد هيثم بالاتصال بشرطة الشغب؟
هكذا ظللت أتأمل في تلكم الأيام الفارغة. أيام الترقب والإنّظار.

انتظار النتيجة. ولم يتوقف تأملي حتى صحت ذات يوم ووقفت في الشباك ممسكا بكوب الشاي وأنا أعبت بالموبايل باحثا عن شبكة انترنت. وجدت شبكة الجار مفتوحة كالعادة فدخلت كالعادة على صفحة الفيس بوك الخاصة. لأجد عشرين اشعارا أو يزيد. هل كان يوم ميلادي؟ لا. يوم نتيجتي. التهاني المصحوبة برابط النتيجة كانت بغيتي. هدفي أن أكون من العشرة الأوائل قد تحقق. سجدت لله في لحظتها وهرعت أخبر والدي. أما أمي فسأخبرها حين تعود من عملها.

-ما لك؟

قالها بانزعاج جدير به. أبي الذي -تقريبا- لم يبرح مكانه منذ سنوات خمس. أبي الذي كان المهندس الأبرز والأنشط تحول إلى رجل سمين يجلس على أريكة هابطة ويتابع التلفاز بلا وعي. في البدء كانت قنوات الأخبار ثم الأفلام والان الأغاني.

-صرت طبيبا كما رغبت دوما.

-مبروك يا حبيبي. مركزك كم؟

يقولها دون إحساس حقيقي. أو بلا إحساس فقدته حين فقد عمله بتهمة أن شركته الدولية ترعى مصالح أجنبية تضر بأمن البلاد. -الرابع. سأحصل على فرصة الاكمال بالجامعة وفي القسم الذي أريد إن شاء الله.

ينظر نحوي ويفتح ذراعيه ويحتضنني و.. يبكي. يبكي كما كنت أراه حين كان يعود كاسف البال من لقاءات الشركات التي يذهب إليها كالمبتدئين لكنه يرفض بحجة السن ولكن الحقيقة أنها وصمة العار بالانتماء للمحظور أو إنتقاما من تلك الشركة الكبرى. يقول أبي إنه يرى نفسه بي. ولذلك يخشى علي. كان ساقا سريع النمو قصمته الريح في يوم عاصف. أبي الذي بدأ من الصفر. ومات أبوه مبكرا دون أن يترك له شيئا. وفي بلدتنا

الصغيرة أكمل تعليمه وانتقل إلى الجامعة القريبة لينجزها في أقل وقت وأقل تكاليف. زواج أخوته البنات يعطيه الحرية للسفر. وهناك في تلك الدولة التي كانت صديقة يوما. يلتحق بتلك الشركة سريعة النمو مثله. حماسه الفائق وعمله غير المنقطع جعل المدير يعرض عليه إنشاء الفرع في بلده. عاد وقام بالإجراءات اللازمة وافتتح الفرع الصغير في العاصمة والحق به العديد من المهندسين. وكاد أن ينشئ الثاني لولا أزمة سياسية، ظنها ستمر لكنها لم تفعل. لم تفعل حتى جرفته في سكتها. لم ينس قط أيام عرضه على النيابة واحتجازه على ذمة التحقيق. حكى لي أكثر من مرة عن البورش والجنايين والعساكر الغلاظ والحمام المكتوم الذي انفجرت منه مخلفاته. كان كل أمله إلا يستمر حجزه فلا يدوم ذلك الجحيم. وحين تم له ذلك اكتشف أزمته الحقيقية. لقد عاد إلى الصفر وهذه المرة بلا أمل الطموحين أو حماس الشباب أو حظ المبتدئين. بل بمسؤولية مضافة لأسرة على كاهل كهل يفترق اللياقة النفسية والبدنية. لا أنكر أنه قد حاول. ولا ينكر أنه لم يحاول بجدية. ولا ينكرون أنه حتى لو حاول بجدية لما وصل إلى شيء. لم أكن أنا أشد المشفقين على أبي، بل أمي الموظفة البسيطة التي تحملت عنه بكل الود كل المسؤولية. مرتبها الصغير لم يكن ليكفي لولا استناده إلى أرباح ثمن الأرض الموروثة لها. قبل أبي الوضع فصار أقرب إلى مُقعد سيئ المزاج وقبلت أمي الوضع فصارت أقرب إلى امرأة تقوم بدور رجل. وقبلت أنا واختي الوضع فلا شيء آخر لنفعله!

أظن أن للفرح لوثة كما الحزن. أي نعم، كان فرحا متوقعا. لكنه كان أخيرا، وكما قيل، يضحك كثيرا مَنْ يضحك أخيرا. لكن ضحكتي لم تكن أخيرة بل تتبعها منحدر صعب. والهبوط من حالق أشق وأنكى من الهبوط القريب. ولا أدري لماذا اعتبرته هبوطا. أليس هذا ما انتظرته منذ سنوات ولأجله كان ما كان؟ أليس هذا هبوط أقرب إلى هبوط الطائرة الذي هو مصيرها وهدفها. لكن مع ذلك أخذني الوجوم إثر الإتصال المفاجئ مساء ذلك اليوم. كان الحدث الأغرب لي منذ سنوات. الإتصال الذي طال انتظاره ومع ذلك لم أتوقعه الآن. بل ربما كدت أن أنسى الأمر. الصوت العميق الذي سمعته ذلك المساء بينما أنا منشغل بالدرشة الألكترونية على الإنترنت. كان عميقا إلى درجة لامست أعماق قلبي، وأعماق ذكرياتي. ذكرني بذلك الشعور المتناقض الذي شعرته عند آخر لقاء. سوف أنتظر إلى درجة الشغف وسوف لا أنتظر إلى درجة الخوف. لذا بين شغف وخوف كانت كلمتي. -مَنْ؟

- لا أظن أنك نسيتني. مبروك يا راجل على النتيجة

- الله يبارك فيك. يااااه أخيرا تذكرتموني.

-لم ننسك قط.

قالها بطريقة وكأنه شرير من أشرار السينما. من أين يأتي بكل راحة البال تلك؟ متى أحصل على واحدة كتلك؟

-وهل اتصالكم تهنئة أم؟

-لقد حانت ساعتك!

قالها منهيا العواصف العقلية. محدثا سكونا لم اسمع عنه لكنه بعد العاصفة

-وما دوري؟

-في مكان لقائنا الأول ستعرفه.

أنهى الاتصال مسرعا وكان هناك من يراقبنا. لم يكن الشعور بالخطر ينقصني لكنه لم يكن ما يسيطر عليّ. وعندما انزويت واغلقت النور في غرفتي. قلق المحبون أُمي واختي. لكني طمأنتهم واخذت منهم كوب العصير الكوكتيل المصنوع خصيصا لي. لكني لم اشربه بل قررت النوم سريعا. وعلى عكس ما توقعت فقد نمت سريعا بالفعل ولم يقلقني الأرق وكأني علمت أن هذا الطريق الأسرع للمعرفة والقضاء على القلق. لذلك عندما صحت وانطلقت دون هندام جيد أو إفطار كاف. لم أذهب مباشرة حيث كانت النتيجة والأصحاب. بل قررت انهاء ما يشغل بالي أولا، لذا اتجهت إلى المدرج "ج" حيث التقينا أول مرة أمام أبوابه. كانت قد طلّبت بدهان جديد وصار لها مقابض أنيقة لكني أعرف أنها لم تتغير. ترى هل سيكون الجواب في صورة جواب بالفعل مدفونا هنا أو هناك. ابتسمت للخطر السينمائي. عندما كلمته ثانية بالأمس كان موبايله مغلقا أما اليوم فلم أفكر في الاتصال هنا حتى جئت لعلّي أجد شيئا. ولما لم أجد هل اتصل به ثانية؟ قررت الإنتظار قليلا ووقفت أتسلى بقراءة بعض الإعلانات في اللوحة المضئية بالجوار. ما اثار انتباهي كان إعلانا للمعيدين بخصوص أوراق تجنيدهم. سيرفقون مستندا بقرار تعيينهم الجامعي كي يشفع لهم ألا يؤدوا فترة تجنيدهم كاملة. ربما هذه ميزة خفية للتفوق إذن. دفعة تجنّدي خلال شهر وسوف أقدم لا شك واحدة من تلك المستندات.

-لكنك لن تقدم أيا من تلك الاوراق.

قالها فأجفلت. وأخذت نفسا عميقا ونظرت إليه من خلفي.

-صار الأمر صعبا لي منذ عدة سنوات لم أدخل الكلية بل

الجامعة بأسرها. أشعر أنني رجعت شابا.

قالها مبتسما فاردا ذراعيه. سلمت عليه مع حضن عابر. لم يتغير كثيرا وملامحه هي الملامح وبشرته هي البشرة. بل أن شعره هو الشعر.

-هل تصبغ شعرك أم انه لازال محتفظا بلونه؟

-الشعر الأحمر لا يتغير بسهولة.

قالها ضاحكا وتأبط ذراعي خارجا بينما أسأله

- ألم تقل أن الجواب في مكان لقائنا الاول

لم يكثرث لثوان ثم قال:

-ذاكرتك ضعيفة. إلا تذكر أننا التقينا هناك ثم مشينا في نفس

هذا الطريق. كل هذا يعتبر مكان لقائنا الأول. نظرت جانبي لأجد

الحديقة الفارغة التي تمشينا فيها صارت مبان للمعامل. لا ورود

لا أشجار لا هواء فقط اسمنت وبشر. كدت أن أرد سوى أنه

سبقني بقوله:

-غير أنك بالفعل وجدت الجواب، لكنك لم تفهمه.

صنعت بإحدى حاجبي علامة التعجب بينما بالآخر علامة

الاستفهام؟

-ذلك الإعلان للمعيدين. أنت لن تقدم فيه. ولن تصبح معيدا

وستدخل الجيش.

ابتسمت أظنه يعبث، لكنه أكمل بجدية مؤكدا.

-سوف ترفض التعيين وتدخل الجيش في كلية الضباط

المدنيين!

-3-

النادي حول حمام السباحة. عصر يوم الإجازة. صخب ومرح وفتنة. الأطفال فتنة المتزوجات. المياه فتنة الفتيات. وهن فتنة الرجال شبابا وشيوخا يستوون! تجمعات حسب الجنس وجدت وحسب الإهتمام وجدت وحسب المصالح وجدت. الأخيرة تجمع خليطا من رجال أعمال يتحاربون طيلة أيام الأسبوع ويتقابلون بين الأشواط هنا وبعض كبار الموظفين الذين -يقولون- يفصلون العمل العام عن الحياة الشخصية. هناك كذلك ضيوف مرحب بهم دائما. لاسيما لو رتب عسكرية. كل له فائدته. كنت أنا أحدهم اتقل بكل دعة. مرحب بي دائما فأنا أعمل لدى جهاز سيادي له خصوصيته لدرجة أنني لا أذكر ماهيته. فقط أنهى جميع المصالح بتليفون أو اثنين إذا استدعى الأمر. وبالطبع هي المصالح المتوسطة كما رتبتي. هذا ما يعرفونه عني وأريدكم أن يعرفون. هذا جزء من عملي. وأيضا جزء من قضاء عطلتي. لكن ما الذي أجنيه من جلستي لأسمع حوارات مكررة من رجال لا يعنيني عملهم في شيء. هم من الغرور بحيث لا يسألون هذا السؤال. وإن كانوا يخشونني في البدء. يهابونني. يخشون الكلام فوق "ترابيزة" لقائهم عن أعمال تتم تحت ترابيزة مصالحهم. لكني رفعت الحرج فيما بعد حين ابلغتهم ضمنيا أنني أو من بمشروعية بعض الأعمال غير المشروعة. فهلما. قسمتهم في البدء إلى أقسام. موظفون ورجال أعمال. الموظفون أكثر حرجا لكن رجال العمل الخاص كانوا أكثر جرأة فشجعوا الموظفين على البوح

بأسرارهم الصغيرة وأسعار ذممهم الكبيرة. وأنا أجلس أستمع مطمئنا في نفسي مطمئنا لهم فليكملوا. ما مصلحتي إذن؟ لا لن أسلك نهج المال والأعمال بعد خدمتي. ربما أصبح حوتا كبيرا. لكن هل حقا يطمح القرش أن يصير حوتا؟ ومن أقوى الحوت أم القرش؟ لكني قلتها سابقا هذا جزء من عملي. لكن ما أقوله تحت برجولة حين نجتمع خمسة أو ستة أقول:

-نوادي الجيش لم تعد تعجب الاولاد. وحديث الضباط أمل من حديث البكوات.

يضحكون ثم يتكلمون وعادة ما يبدأون بذكر فاتنة هنا أو هناك ثم يتبعونها ب..

-وزوجتي كفيل يغار من غزلان. وتنسى الفرق بين الاجناس. أحيانا يحكون بعض المغامرات في ذلك المجال. عادة لا يطيلون ويتكلمون في السوق ويتبعونه بالدولة.

-الطلب على التفاهات يزداد لقد صرت أخجل أحيانا. مصانعي الضخمة تنتج كاراتيه ولبان! -الدولة صعبة الظروف حقا.

-لو خطط لها أعداؤها ما وصلت إلى هذا الحال. ينظرون لي فابتسم وكأنني ليس مسئولا أو يعنيني الأمر. ثم يبحثون قليلا عما يعني أعمالهم حتى في يوم اجازتهم وكأنهم اليهود يرمون شباكهم ليلة السبت. -قطعة أرض أرغب في ترخيصها لكن المشكلة في عقود ملكيتها.

وكأنه مزاد على قضاء المصلحة. بتورية لطيفة. ترخيص لأرض بوضع اليد. من يأتيني به قبل أن أقوم من مقامي. عادة يدخل المزاد الموظفون ومعارفهم. وإن لم يكن أدخل أنا إذا وسعت قدرتي الأمر. لكن الأمر كذلك لم يكن يقتصر على

المهمات الاقتصادية. لكن تطور إلى أمور سياسية لاسيما أيام الانتخابات. الأحزاب المرضي عنها قليلة وأماكنها دوما مشغولة، والفراغ لا يسعف هؤلاء لخوض الخصم. إذن فليحظوا بدعم خارج الأحزاب. فقط على الأقل عدم دعم سلبي. سيتغلبون بأموالهم. فقط ليتركهم الحكم. هنا أتوسط. وهنا لا ينكرون أفضالي. لكن هذا اليوم كان مختلفا.

-حالة الغضب في البلد تعلو.

-المسكنات لا تجدي.

-الانتخابات قادمة.

-لن يغامر النظام بانتخابات غير نزيهة تزيد التذمر.

كل هذا لم يشكل خطرا حقيقيا. فالانتخابات الغير مزورة بطريقة أو بأخرى ستأتي بمن هو محسوب على النظام. فقط بشرط واحد، أن يكون الناجح يرغب في أن يُحسب على النظام لا أن..

-سأترشح للحزب المعارض!

قالها وسكت. والغريب لم يكن قوله أو صمته، بل صمت من حوله. لم ينهه أحد. ولا أنا. ظللت أنظر له بثبات. ناديت فريد ابني الذي يلعب في حمام السباحة واستعددت للمغادرة بساقي العرجاء.

المكان سري جدا وإن كان يعرفه الجميع والموعد التاسعة لكن لم يأت أحد قبل التاسعة والنصف ولن يأت القائد إلا في العاشرة. في القاعة التي أفضلها من ضمن ثلاث وقفت أتأمل الحوائط الدائرية المحيطة بالمنضدة الدائرية العملاقة التي لا بد أنها

صُنعت خصبًا طبقًا لمقاس المكان. على الحائط أتأمل لوحات زيتية مرسومة لقادة البلاد على مر عشرات السنين. البعض يبالغ في قوله أن البلاد تدار من هنا. هذه مبالغة بالطبع لكن لها قرائن. القصر ليس بعيدا عن هنا في كل الأحوال. قلتها لنفسي واقتربت من صورة الزعيم متوسطة بقية الصور مضاعفة لهم في الحجم. -المقدم أنور.

سمعتها من الخلف تناديني فالتفتت إلى العميد أشرف الذي وصل مبكرا عن الباقيين. كان على الباب ينظر لي باهتمام. -أهلا سيادة العميد.

قلتها بلا تحية. لم يكثرث واقترب من خلف المنضدة ليقف جوارى.

-ماذا تتأمل. هل نسيت وجوههم ولو للحظة.

-لوجوه ما خلفها كما أنك لا بد تعرف.

-تقصد؟

نظرت للثلاثة الأول على اليمين.

-هل تشك لحظة أن هؤلاء يكرهون بعضهم.

-تقصد كانوا

كدت أن أخبره أنهم مازالوا في قبورهم لكني صمتت فقال ساخرا:

-هل تطالب ألا نضعهم متجاورين حذرا من أن يتشاجروا مثلا؟

ضحكت اصطناعا وقلت:

-لا يا أشرف بيه. أقصد. أنظر للمفارقة. جميعهم رؤساء

رموز لنا. نحبه جميعا رغم تباينهم الشديد.

-هل تحبهم كلهم بالفعل؟

قالها بخبث تنمر. ترى ماذا يقصد؟ إنه يحبهم أم لا؟ وكدت أن أرد لولا وقع خطوات. هذه المرة أدى التحية كلانا فقد كان اللواء سنهوري ومن خلفه تابعه الأمين العقيد يونس. كان لزاما الآن أن نجلس بعد أن جلس اللواء على يمين كرسي القائد الذي لم يأت بعد. توالى الرتب بالمرجئ. وجلست أنا قرب الباب. دخل نقيب شاب يسألنا عما نشرب. اجتمعنا على القهوة. أنا أصغر الموجودين هنا ليس فقط بحكم الرتبة بل السن كذلك فلولا ترقياتي المتوالية لكنت أقل رتبة. ولولا ثقة القائد الجديد لما كانت ترقيتي الأخيرة. دخل النقيب ثانية معلنا وصول سيارة السيد قائد الجهاز. نظرنا مترقبين للباب ولما دخل بقامته الطويلة نوعا وقفنا مؤدبين التحية بينما هو يشير بيده لنجلس. اتجه إلى رأس المجلس وجلس. ضرب جرسا وقال قبل أن يدخل النقيب.

-قهوة يا هاني

لكن هاني لم يسمع حين دخل فاشرت له باصبعي اللذين بدوا كفنجان، فانصرف.

-صباح الخير يا سادة يا كرام.

قالها بطريقته المعتادة التي لا تتم عن ابتهاج أو ضيق.

-صباح الخير يا فندم

-اجتماع اليوم وإن كان إجتماعا دوريا فانه إستثنائي كذلك لذا سنرجئ مناقشة كافة مواضيعكم إلى الاجتماع القادم. لدينا ما هو أهم.

-لكن يا فندم.

كانت من اللواء أسعد

-ماذا؟

-هناك مواضيع لا تحتل التأجيل. مشروع الأمل صنع مشاكل أكبر من مزاياه.

كان يجلس على اليسار لذا فقد كنت مقابلا لطرف عينيه الذي الذي تظاهر أنه لم يرقبني. هل توقع أن أرد مثلاً؟ لم أرد لكن القائد رد.

-لا مناقشة قلت.

نظرت مليا إلى اللواء أسعد الذي بدا متبرما. ثم أجفلت حين نظر لي بدوره.

وحينما دخل هاني بالقهوة للقائد طلب منه الأوراق في الخارج مع المرافق. بينما للحظات تكاثر الهمس ثنائيات جانبيات. كان جوارى العميد سمير وهو رجل تقني يقود قطاع الكمبيوتر. لذا فقد كان قليل الكلام وقد رحبت بذلك خاصة مع اختلاسي النظر عبر الباب للمرافق والأوراق التي قدمها لهاني قبل أن يدخل ليضعها أمام القائد. حينها انتبهت الرؤوس ثانية. قلب في الأوراق قليلا ثم عاد إلى الصفحة الأولى.

-من التقارير التي أمامي والتي ساهم فيها بعضكم أو أكثركم، ومن الصورة المجمعة التي عندي وحدي أستطيع القول أن هناك خطرا يتهدد نظام الحكم.

سكت هنيهة امتعضت فيها الوجوه ثم أردف:

-في الحقيقة نظام السيد الرئيس يضعف يوما بعد يوم. الأحوال تتدهور. ولم يعد من سبب مقنع لهذا للشعب إلا الفشل.

استأذن لواء نسيت اسمه وقال:

-هل تقصد الخطر في الفشل أم في غضب الناس. ففي كلا الحالتين لا الفشل بسببنا ولا الغضب سيؤدي إلى نتيجة.

ابتسم القائد قائلا:

-أنت لواء وحضرت الإنتفاضات الماضية. الوضع غير مأمون.

وافقته الرأي خاصة أنني واحد من أصحاب التقارير.

حدث لغط في المجلس بينما القائد بدا وكأنه يستخرج ورقة معينة من بين التقارير وحين فعل.
-أرجو الصمت والبقاء في الموضوع.
صمتوا.

-كما قلت اتسعت المعارضة الشعبية واقصد بالشعبية هنا كل الطبقات. أي نعم، لم تتحول إلى عمل أو حتى قول لكن التفكير مقدمة. ومع ذلك فالمشكلة قديمة.
أمسك بأحد التقارير وأخذ يقرأ:

(الشباب معارض منذ اللحظة الأولى لقيام هذا النظام. ما اسكته لم يكن فقط يد الأمن. فمعظم الشباب غير مسيس ولم يشترك في مظاهر احتجاج ضد النظام حينها. ما أسكته كان اليأس. اليأس من التغيير. وأيضا لم يكن ما أيسه يد الإعلام بل ببساطة من هم غير الشباب. هؤلاء كانوا كتلة تأييد النظام الضخمة. أهميتهم لم تكن تكمن في ذاتهم. لكن في اضعائهم الشرعية على نظام يكرهه الشباب فيفتقد حينها لدافع التغيير. الآن الكتلة الضخمة تنفتت. تعطي الشباب اليأس أملا).
سكت بينما قال أحدهم.

-أنا أعارض على هذا الكلام.

انفعل القائد

-لا يحق لك الإعتراض. المتخصص هو من يتكلم. تفضل سيادة الدكتور نبيل.

والدكتور نبيل هو العميد نبيل هو رئيس القسم النفسي بالجهاز،
جالسا على اليسار بجوار اللواء أسعد. بدأ الكلام:
-الكلام مجمله صحيح. لا أهمية مطلقا لرأي الكبار. فالرأي عندهم لمجرد الرأي، أما الشباب فالرأي للتغيير.

لم تكن إجابة وافية وبدا القائد راغبا في إكمال ما بدأه وبدأ
يقرأ فقرة أخرى من التقرير أمامه:

(ومن الملاحظ وغير المستغل أن الشباب جلهم يقعون تحت
رحمة النظام دون جريمة أو ملاحقة. فقط هو العرف المعروف
بالخدمة العسكرية. تستغل من ناحية إقتصادية بحتة وأظن أنه
حان الوقت لاستخدامها سياسيا).

وضع التقارير ونظر لنا صامتا برهة وقال:

-لا نقاش في الفكرة. النقاش في تطبيقها. أروني ما ترون.
بدا التلجلج نتيجة الغموض.

قال اللواء سنهوري بصوت منخفض سمعته بالكاد:

-تقصد يا فندم إعادة تأهيل الشباب المعارضين من خلال
الخدمة العسكرية.

-بالضبط

لم تكن تلك من القائد بل مني. ترى هل خمنوا حينها أنني أنا
كنت صاحب التقرير والمشروع الجديد؟!

بتقرير مماثل ارتفعت إلى ما أنا فيه، من ضابط عادي إلى
رتبة لم يصلها أقراني في هذا الوقت اليسير. كان الوضع مختلفا
كثيرا. بالإضافة أنني ضابط انتقل حديثا إلى فرع هام في هيئة
تعترف بالأقدمية أسلوبا حيث تصبح أسوأ الموجودين حظا. حتى
الأقل منك رتبة. إلا أنه بالإضافة لذلك أنت شخص أعرج ولك
قصة مثيرة أثارت الإعلام ودوائر الجيش عدة أيام. وهذا معناه
أنك ستكون الحديث هنا لعدة شهور. ستكون الحديث بارادتك عبر
الاسئلة التي توجه لك ومن خلف ظهرك في غيبة الزملاء. لم

أكثر لهذا وقررت شق طريقي. وفي البدء كانت المهام الميدانية مهمتي. وبينما لا يرغب الجميع في مغادرة مقاعدهم كان عليّ التحرك يوميا بين الوحدات العسكرية رغم عجز المستديم. كنت أتفقد حالا شبه موحد. وكنت أرفع ما أراه وأعرف أنه لن يتغير. لفت نظري العقيد زين أكثر من مرة.

-الصورة القاتمة لا تعني شيئا إذا كان لا يمكن تغييرها. فلنجعلها بيضاء أو قل رمادية.

لم أكثرث إلا بالصدفة حين مرة في مكتبه حين قال:
-يبدو أن الصورة القاتمة العامة تسربت. الأركان تطلب حلا لمشكلة الاحباط لدى المجندين.

في ذلك الوقت كان الإنتحار وأحداث العاهات عمدا والهرب وسط المجندين في أوجها. كان هناك تعتيما لكن لا شيء يبقى مظلما. التسريب أخرج الحكومة والجيش.

-ساتركك ليومين لتوجد لي حلا.

-لكنني بالفعل فكرت في حل.

نظر لي باستغراب فأردفت:

-الحل هو الأمل.

أثناء تجوالي بين الوحدات بالاضافة لخبرتي كوني عسكريا بل وكنت من قبل قائدا لإحدى الوحدات. يتعلق الأمل لدى الجندي في شيء واحد: الاجازة. المجند تتضاعف عنده الرغبة بفعل كونه مدني بالأساس. لاحظت كذلك أن الإجازات تتفاوت بين الوحدات وأن معظم الوحدات يعاني المجندين فيها من فراغ يسمح بالطبع بمضاعفة اجازتهم.

حين أخبرت العقيد زين ضحك وقال:

-أنت قليل الخبرة يا بني. هل تظن أن الإجازة تسبب السعادة؟
بل هي مقدمة الإحباط. وأشد لحظات الإحباط هي العودة من الإجازة.

كان محقا وكنت أعرف ما يقول. في الحقيقة الإحباط يكاد يكون متساويا بين المجندين. من طالت إجازته أو تعددت أو من قصرت إجازاته وقلّت. الإجازة المنتظمة يقابلها سجن منتظم. الأمل يكمن إلا ينتظم السجن. فكرة المنحة في المرتبات ستتكرر في الإجازات. منحة يومية لأحد أفراد الوحدة. نعم قد تكون أنت. نعم أنت. لو ليس اليوم سيكون الغد. الأمل الأمل. الحماس والتشويق. المغامرة والمسابقة!

ظهر الإهتمام على وجه العقيد زين
-حضّر لي ملفا. حضر لي ملفا منظما.

وحين حضّرت الملف والخطة وتم عرضها وتطبيقها، ظهرت لها نتائج فورية لكن أهمها كان على المستوى الشخصي. ترقية جديدة وثقة جديدة من قائد جديد وكأنني أعيد خبرة سابقة لا تزال في ذهني وإن كانت قد كلفتني ساق في ظروف عصيبة!

2013

لم أخف إعجابي بهذا الطريق الذي أراه لأول مرة. طريق مستقيم مظلّل بلا مطبات بلا سيارات. أعرف أنه سيصير لعنة مساءً فالطريق غير مضاء لكنا كنا في عز النهار. الأشجار الموازية على جانبي الطريق ضاربة في القدم بقدر ما ضربت جذورها الأرض والتي ربما الواحد منها له قطر كقطر سيارتي بل أن جذعي الشجرتين المتقابلين ربما ساويا عرضا قدر الطريق الضيق غير المزدوج. وفروها الوارفة السفلى تكاد تلمس جانبي السيارة، بينما العليا تلامست بالفعل بعضها البعض صانعة قوسا أو مظلة، وكأنها غابة تفرعت من صحراء. فالطريق الصحراوي الذي أتيت منه قبل أن أصل تلك التفرعة على النقيض تماما في المزايا والعيوب، غير أنني أحببت هذا الطريق باعتبارها المرة الأولى ربما، فانا الشغوف المولع الذي سماني أبي صانع المشاكل والحلول. بالمناسبة أبي هو من اعطاني تلك السيارة مكافأة على الترقية الجديدة والتي انتقلت باثرها إلى هذا المكان الذي لم أراه بعد عبر طريق لم تطرقه أمامي إلا شاحنتان مقابلتان محملتان بمحاصيل الصوب. تفاديتهما بصعوبة. للحظة ظننت أنني اقتربت وانا أرى ظلا بعيدا ونسبة ما لكمين. لكن حين اقتربت بدا كمينا عشوائيا. جذع شجرة طويل لكن رفيع مربوط من ناحية سمكه إلى حجر ضخّم يستخدم كرافعة للجذع. لكن ما من أحد. إذن كيف مرت الشاحنتان الماضيتان. لم يطل تفكيري إذ لم يطل غيابهما. إثنان مقتولا العضلات من خلف الأشجار الضخام التي —حين تمعنت— أدركت أن وراءها أشجارا وأشجارا. إنها غابة

حقيقية. توترت. زيي الرسمي الذي أرتديه سلاح ذو حدين إما يحميني أو ينكل بي. اقترب الأول من الشباك المقابل وقال:

- رايح فين.. هممت بالرد.

لكن الثاني الذي اقترب من شبكي وحين وجد الثلاثة نجوم على كتفي أشار بيده تحية وأشار للآخر أن يبتعد وأشار لثالث لم أره إلا الآن أن يفتح جذع الشجرة ومن خلفه أحجارا لم أرها إلا الآن كذلك. وقال:

- أهلا أهلا المنجلة نورت.

استعدت تركيزي وقلت:

- أنتم مين؟

-إحنا حراس الطريق. حضرتك أول مرة نشوفك وتشوفنا بكره تتعود علينا. اتفضل.

ظللت على نظرتي لكنه قال ثانية بحزم أكثر.

-اتفضل

أدركت المحرك وانتقلت ببطء مقررا إلا أحدث جلبة. ظللت شاردة حتى أفقت على صوت شاحنة محملة بالمحاصيل وقد ضرب صاحبها تنبيهه حتى انتبهت وتفاديته وقبل أن أسبه أو أسب نفسي وجدت اللافتة ذات السهم الذي يكاد يمسح. وحدة الإشارة ترحب بكم. أبطأت وانعطفت. كانت البوابة أقرب مما أتصور. كانت بائسة بمعنى الكلمة. حتى الأشجار الضخمة اختفت عن جنبي المدخل وبدلا منها كانت أشجار ذابلة وحشائش غير منتظمة. وحين أمعنت النظر وجدت بقايا جذوع الأشجار الضخمة ترقد بين النباتات الضئيلة. لقد قطعوها ليستبدلوا بها تلكم الشجيرات! حين أوقفت سيارتي رأيت مجندا يهرع إليّ. وقبل أن أعلمه من أنا إذا به يقدم التحية قائلا:

-عندنا خبر بسعادتك.

كان أسمر البشرة والعيون والشعر أجده. حمرة في الخدود من أثر الشمس. وجه مستدير يشعر بالإلفة. لحقه زميله الطويل الرفيع الذي بدت عليه الغلظة وفتحا البوابة. في الداخل كان الأمر أكثر بدائية وعشوائية. كانت الطرق رملية غير ممهدة جيدا. توقفت قريبا في كل الأحوال. خلف سيارات الوحدة العتيقة التي هي بلا شك من مخلفات الحرب. وقفت للحظة أتأمل الوحدة الموعودة. مبان صغيرة من دور واحد. هذه هي الصفة الغالبة. جاهدت لتمييزها. فميزت مسجدا صغيرا، ودكانا أصغر أمامه عدد من الكراسي. ومبنى واسع من مجموعة حجرات لا بد انه المبنى الإداري. وفي الركن البعيد عدة مبان متشابهة متجاورة لا بد أنها للايواء. تقدمت خطوات. لم ألمح إلا عدة مجندين على الاسوار وآخرين يدخلون ويخرجون وآخرين يقبعون على الكراسي امام الدكان الذي ميزت امامه منضدة وتلفزيونا تنبعث منه موسيقى شعبية وصوتا خليعا. لم أنصت وواصلت التقدم حتى دخلت من باب المبنى المتسع.

-أهلااااا سيادة النقيب أنور.

كانت ممن عرف نفسه بانه ضابط الصف جمال. سلم عليّ بحرارة الأصدقاء. يبدو أن خبري انتشر فعلا.

-الملازم سيف في انتظارك

قالها وسبقني إلى غرفة مغلقة ففتحتها لتبدو غرفة عادية جدا فقط كان المكتب جديدا بعض الشيء. ومن خلفه الملازم سيف الذي أدى التحية وانسحب لأجلس بدلا منه. جلس هو أمامي معلنا تسليم قيادة وحدة الإشارة 177!

حسنا. لنأخذ الأمر بشكل مختلف. لنأخذه بنظرة أكثر عموما. لماذا يحاول الإنسان أن يحيا لهدف؟ ستتعدد الاجابات لا شك كما تتعدد المناظير. دينيا هذه الحياة مجرد اختبار لذا فالهدف هو النجاح فيه. لكن لو كان الأمر كذلك لم لم يقتصر الدين على العبادة؟ ستضمن لك النجاح لكن التفوق يحتاج إلى جهاد. ستتعدد المناظير ثانية. أي جهاد تقصد؟ لو استثنينا مسمى جهاد النفس لوصلنا إلى نقيضه جهاد الغير. فعلام أجاهدهم وكيف؟ الدين. واذا كانوا على نفس الدين.. الحياة.. الأمور المشتركة بيننا.. أينا يحكم؟ أينا يملك القرار؟ الكيفية ستكون مختلفة. لكن هل ستقتل المخالف؟ سيقفلك بعد قليل. الحل الأمثل هو: السياسة! إذن السياسة وسيلة للجهاد والجهاد وسيلة للهدف والهدف وسيلة للحياة. وحين أعود بالزمن أدرك أنني لم أكن أدرك ذلك حتى فترة قريبة. ورغم أنني كنت قد أسست لهذه الفكرة في مدينتي الصغيرة لكنني لم أدرك معناها إلا حين دخلت الكلية الموعودة بسداجة أحسد عليها وأنا أول الحاسدين. من تلك المدينة الصغيرة المجاورة انتقل أبي ليعيش بالعاصمة. عمله بالعاصمة لم يشفع لهذه الخطوة لكن التحاقني بالجامعة العريقة ومدرسة طبها كان دافعا أقوى له. أذكر أبي حين كان يقول:

-أنت ما شفتش حاجة.

والآن يقول لي وأنا جانبه -للمرة الأولى- في الكرسي الأمامي من السيارة بدلا عن أمي التي جلست بالخلف مع أختي الصغيرة.

-دلوقت هتشوف كل حاجة.

كانت السيارة تمر بنا في أحد أشهر شوارع العاصمة وأكثرها
إزدحاماً وقد أتاح لي الإزدحام الاستمتاع بتلك الشهرة بمتابعة
معالمه المميزة التي لم أرها إلا في الرحلات.
-هنا فيه كل اللي تطلبه. بس التنافس شديد.

ابتسمت ولم أرد وحين بدأت السيارة تخترق الشوارع الجانبية
عرفت أننا شارفنا الوصول. وبالفعل في عمارة أنيقة كانت شفتنا
التي استأجرها أبي لخمسة أعوام. كانت مؤنثة بشكل حديث. لا
بد أن صديق أبي مهندس الديكور تكفل بالأمر. تكفل كل منا بنقل
حاجياته من السيارة، إلا أُمي التي منعتها من هذا.
-اطلعي. أنا هانزل ثاني أجييها.

كان الطابق الثاني هو بغيتنا. أحسست بالإحباط لعدم وجود
مصعد. لكني حين تأملت الشقة أحسست بالمزيد.
أشرت لأختي التي أثقلتها حاجياتها وأكياسها وقلت همسا لنلا
يسمعنا أبي:

-مش ضيقة شوية؟

صمتت خاصة حين ارتفع صوت أبي.

-أيه رأيكم؟

فقلنا بصوت واحد:

-جميلة يا بابا

ثم تذكرت شنط أُمي التي تركتها في الأسفل. نزلت لأحضرها
فلم أجدها. لا بد أن أُمي العنيدة لم تستمع لكلامي. صعدت لأسألها
لكن سؤالها كان أسبق.
-فين الشنط؟!!

يقول الشيخ عمرو في تفسير قوله (هو الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبا)، أن الضعف الأول غير الضعف الثاني غير الأخير فإن كان الضعف الآخر تميز بالشيب، فالضعف الأول تميز بضعف الوجود ذاته أي في مرحلة النطفة والعلة والضعف الثاني تميز بضعف الإنسانية ذاتها من قوة وعقل واختيار. أما القوة فهي واحدة لكنها متدرجة. وعلميا هناك اختلاف في تحديد وقت ذروة النشاط العقلي. فهناك قائل أنها مع بداية القوة —سن 15- وهناك قائل انها في آخرها —سن 40-.

حسنا كنت أظن أنها في سن 15 وما يليه. عن تجربة ذاتية. أي نعم، لم أكن جربت سن الـ 40. لم أسمع لكلا الطرفين. لكن الصوت في أعماقي لا يمكن أن يعلو أكثر. أفكاري لا يمكن أن تتضارب أكثر. اكتشافاتي لا يمكن أن تتعاضد أكثر. نعم، قد لا أكون الأنضج. لكن النضج مجرد مرحلة مجرد تطور ما، كنضج الطعام. قادم قادم المهم النار والمرق. وأنا كنت أملكهما.

آه من المراهقة. عبقرى من اشتق لها هذا الإشتقاق من الرهق. وأية رهق؟ ولمن؟ رهق لمن حولي أم لنفسي؟ رهق في جسدي أم في فكري؟ رهق لكن ما من أنشط منه. رهق لكن ما من أسرع منه واحد وأقوى. إذا كان الشباب قد سموه جنونا وهو قمة التعقل بالنسبة للمراهقة بل هو مبتغى المراهقين وذويهم، فماذا تكون المراهقة غير مس من الجن ورقص مع الشيطان؟ حسنا الجميع يعرف هذا إلا المراهقون أنفسهم. وربما لو عرفوا لأراحوا واستراحوا. ربما لو عرفوا لخفضوا صوت جنونهم ولقيدوا

العنان لأفكارهم. كل ما به تحلمون تفكرون، هو زائل ومتغير وأول من سيسرف عنه النظر هو أنتم. لكنهم لم يعلموا ولن يصدقوا. فكلهم يظن أنه أذكى ممن قبله. أذكى ممن ينصحه. وكأنه يقول ليس معنى أنك كنت كذلك في مراهقتك أني مثلك. لكن الحقيقة أن من ينصحه نفسه فكر نفس هذا التفكير حين نصحه جده وهكذا. إذن كنت أنا أحد المراهقين يوما ما. ليس ببعيد. وعشت مراهقتين مرهقتين متوازيتين؛ مراهقتين أحدهما بين جدران مسجد والأخرى في زقاق خاو مع الشيطان، مراهقتين استنفذتا كل قواي حتى صرت ما أنا عليه.. لا شيء!

أ

قال لي الملازم سيف:
-الموضوع هنا مختلف تماما عن مركز القيادة اللي كنت فيه.
لم أنظر اليه بل ظللت أتابع طابور الخدمات الذي اجتمع به كل عساكر الوحدة ليسمع كل دوره في خدمة الحراسة.
-مختلف بالطبع في الحجم والمكان والأهمية. هنا وحدة صغيرة في مكان بعيد وأهميتها بس وقت الحرب كحلقة وصل من حلقات كثيرة ضمن سلاح الإشارة. يعني الوحدة كلها رهينة الجهاز في الغرفة الثانية.
كان ثمة أحد الناقصين في الطابور فبدا الغضب على ضابط الصف الثاني وهو عبد العظيم وبدأت كلماته النابية تصل لمسمعي هنا. لاحظ الملازم تأثري فقال:

-ما ينفعش معاهم إلا كده. سيبهم وخليك أنت في مكتبك وراقبهم وممكن تحل المشاكل لو تعقدت فتظهر كخبير رحيم.
كان الملازم سيف قوي البنيان صلب الملامح ربما قاسي القلب كذلك.

-تعال أوريك الجهاز.

انتقلت معه إلى الغرفة المجاورة متخيلا جهازا دقيقا الكترونيا ما، لكن ما شاهدته كان جهازا ضخما حقا كبير الأزرار متصل بهوائي من خلال السقف مباشرة احتل معظم مساحة الغرفة الضيقة التي زينتها بعض اللافتات وساعة معطلة ومروحة لا تعمل. لم يكتف الملازم باضاءة الشباك فاضاء لمبات السقف والحائط فبدت الوحيدة ذات الحالة الجيدة. أمام الجهاز كرسيان حديثي الطراز وعدة سماعات وشاشة كمبيوتر. لففت حوله ومسحت بعض التراب الذي علاه.

-الجهاز ده كان آخر طراز في آخر حرب.

-يعني من عشرات السنين.

-قلتها بتهكم.

-ماتستهترش بيه.. ده جهاز بعيد المدى ويوصل وحدات الجيش الشرقي كلها في شبكة واحدة.

لم بيد بهذا القدم ولا تلك القيمة أيضا.

-لكن آخر مرة أستخدم إمتى؟

-من شهر تقريبا.

-تقصد إمتى

-في آخر تجربة حرب تمت. الجهاز مسئول عنه رائد مهندس اسمه أيمن.

-وفين هو

-مابيجيش باستمرار.. أسبوعيا أو كل أسبوعين. وفي تجارب الحرب يحضر هو وملازمين معاه وممكن يمر علينا قائد اللواء الهندسي.

إذن لذلك ليس هو القائد. هو أقرب إلى فني يحضر ويغيب لكن إدارة الوحدة تحتاج إلى مجرد رجل عسكري.

-يبقى ماليش أنا أي دور.

-ولا أنا.

ضحك وكأنها مزحة.

-طب أيه أهمية باقي الوحدة بقي؟

خرجت من الغرفة فلحقني.

-في الحرب وجود وحدة عسكرية تحمي وتخدم الجهاز والفنيين أمر ضروري أما بقي في السلم.

سكت قليلا ثم اشار للمجندين في الطابور المستمر.

-هو ده الغرض

بدأ الأمر يسوء في الطابور ويبدو أن الغائب قد عاد ويبدو أنه كان غائبا متعمدا. مشادة مع ضابط الصف تبعها شتيمة. توقعت أن يسكت ويقبل. لكنه انسحب ولما وجد الملازم سيف اقترب منا وقال:

-يرضيك أتشتم؟

تعجبت من جرأته ولما تأملته وجدته يبدو عليه النعمة والفهم

-أيه اللي حصل؟

لحقنا ضابط الصف وقال إنه لم يحضر الطابور وبرر المجند الأمر أنه متعب اليوم كما أنه ليس عليه خدمة فلم يحضر الطابور.

في النهاية أوقفهم الملازم بيديه وقال:

-السجن، وريح بالك يا عبد العظيم.

الجامعة. حلم آخر لأبناء الريف. الجامعة التي شبهها لنا استاذ لغة عربية قديم بعدة مدارس ثانوية كبيرة مجتمعة. لكنها لم تكن كذلك. وشبهتها السينما بمجتمع الحرية والحيوية، لكنها لم تكن كذلك. الجامعة. أقف جوار النافورة في المدخل أنظر للعابرين من البوابة أفرادا وثنائيات وجماعات. ثم أدير النظر للسلالم والمظلات التي امتلأت بمن يتكلم ويضحك أو يشرب الشاي. وحين أذهب أنا إلى الكافتيريا أشتري شيئا ألاحظ أنني الوحيد الذي يطلب شيئا واحدا فالبقية يطلبون لأنفسهم ولغيرهم ممن ينتظرونهم. أدركت الأمر. كانت مشكلتي وحدتي. كل أصدقائي في جامعات إقليمية أخرى. وأنا هنا في العاصمة وحدي. وقدرت أن تلك لب المشكلة. فلو كنت محاطا بأناس لم أعرفهم لكنهم من نفس أروصي وعادتي لألفتهم وصادقتهم. لكن الأمر هنا كان مختلفا. أحس للحظات أنني أجنبي. يلفظني المكان الذي أحببته ولم يحبني والاشخاص الذين أحاول استمالتهم فلا يجيبونني. كان تفكيري المنطقي يجعلني أحلل الأسباب تلقائيا بل أكتبها ثم أكتب حلو لا لأنفذها. فأنا في الواقع لست سيئا إلى هذا الحد. إذن فالعيب ليس فيّ بل في عوامل محددة. وها قد وجدتني كتبتها على هوامش ملخص محاضرة التشريح. اللهجة. الملابس. الشخصية. كانت تلك عوامل اختلافي عن المحيطين بي. وهي للوهلة الأولى نفس عوامل الأجانب عابري الحدود. لكنها في حالتي بسيطة الفرق سهلة التغلب. أما الملابس فكان تدبير أمرها سهلا. فبيعض إلحاح على أبي سمح لي بالنزول لكي أنتقي ملابسني بنفسني. -أنا كبرت ويمكن أنزل لوحدي ومش عايز أعطلك.

قلت لها له فتفهم الأمر. والأهم من ذلك أعطاني النقود اللازمة لذلك. احتاج الأمر مني لعدة أيام بين أماكن لا تكفيها نقودي وأماكن لا يكفيها تساهلي وأماكن تهت فيها ذهاباً أو عودة. لكن في النهاية انتقيت ملابس في منزلة بين المنزلتين. وفي الكلية صار تمييزي صعباً. لست صاحب البنطلون القماشي بالأسفل والشرز في الأعلى. هكذا حلت مشكلة الملابس أما اللهجة فأيضاً تدبرها كان سهلاً بتحاشي الفاظ معينة وإدخال ألفاظ معينة أثناء الحديث. فيجب تحاشي أي كلمة محلية الصنع في محافظتنا. ويجب تحاشي مد الحروف ولو على كلمات عامة معروفة. ويجب تحاشي بعض التشكيلات كفتح بعض الحروف أو كسرهما. احتاج الأمر لقليل من الحرص. والغريب أنني وجدت قدوتي في الأمر هو أبي غير أنني لم أنتبه لهذا سابقاً. فهو بحكم عمله منذ سنوات صار يتكلم بلهجة عامية ممتازة ويتحاشى مفردات الريف السابقة. أما ما أحتاج من الإنصات والتعود فهو كيفية استخدام كلمات معينة خاصة ولو كان بالإنجليزية. كان هذا الأمر يغيظني فلم أتوسع فيه وهو يشبه طريقة الكتابة اللعينة بالحروف الإنجليزية لكلمات عربية. غير أنني لم أجد بأساً في استخدام بعض المترادفات. بل أصبحت تلقائية بعض الشيء لأن دراسة الطب بالإنجليزية بالأساس. بقي الأصعب في التغيير وهو الشخصية. كيف أكون جريئاً كهؤلاء؟ كيف أكون واثقاً كهؤلاء؟ كيف أكون خفيف الظل كهؤلاء؟ لكنني بالفعل أملك جرأة وثقة وبعض من الخفة. فقط الأمر يحتاج إلى قليل من لفت الأنظار. في البدء أتت الملابس وتغيير اللهجة ببعض الثمار تعرفت على مجموعة من رفقاء المجموعات العملي. لكنها معرفة ظاهرية. علاقة زمالة لا صداقة، بالإضافة إلى أنهم لا يستحقون العناء. كان هدفي من هم أفضل. هكذا بدأت بالاليب محددة. سأكون الأكثر أسئلة للدكتور

أثناء المحاضرة. سئلتني لي ويجعلني أجيب ويعرف اسمي وحين
يفتقدني سوف يسأل عني باسمي الذي سيصير مشهوراً، فأجيب.
وسأكون المتطوع رقم واحد في الإجابة في مجموعات العملي.
حتى لو بالخطأ أو الظن فالمشاغبة مطلوبة كذلك، وهي مما أريد
إضافته إلى شخصيتي الجديدة. هكذا كونت شهرة لكن علاقات
مباشرة تحتاج إلى تعامل مع الطلبة لا الدكاترة. لذا فلا بأس أن
أخص بعض المحاضرات. أن أحضرها وأركز وأكتب وأبيض
ثم أوزع مجهودي على المكتبات. أي نعم، نيتي لم تكن الثواب
لكن الله وفقني. لكن بقي الترقب. مازلت شخصية اعتبارية لا
رسمية. رسمية بأن يثبت اسمي في مركز ما وليكن مركز ترتيب
في النتيجة. لكن لن يبرزني سوى أن أصير الأول وحين ظهرت
نتيجة "الترم" عرفت أنني حققت أهدافي!

م

كنت أخرج من البيت قاصداً الدرس. أنا وعبد الله. فلا يذهب
كلانا الدرس ولا يذهب كلانا لوجهة الآخر. مسجد الشريف يتألق
نوره ومئذنته والأهم من ذلك شيخي العظيم. أستاذ الدرس ذو
الكرش والنظارة الجشع الذي لا يفهم شيئاً. أما هذا الشيخ الجليل
ممشوق القوام واللحية والفكر. أدرس التاريخ القديم العقيم
المكتوب حسب الهوى أنفع أم درس شيخي عن عبر التاريخ
ونواميس الكون وقصة الحضارات. الموضوع محسوم منته بلا
جدال. كثيرون أدركوا تلك الحقيقة. لذا كثيرون يحضرون
الدروس. كثيرون يحيطون الشيخ يكلمونه بلا توقف لا أعرف

كيف. أنا المفتون به لدرجة خجلي من جهلي وضعفي فلا أستطيع له كلاماً. أما عبد الله فكان يضحك من دروستي معتبراً إياي مجنوناً. أما هو وأصدقائه البعداء وما يفعلون هو العقل. كنت أدعو له بالهداية. وأدعو لأمي وإخوتي الغائبين عن الوعي أمام التلفاز والإنترنت. بل أدعو لأبي رغم أنه هو من عرفني على المسجد ثم نهاني عنه. عرفني عليه يوم الجمعة ونهاني عنه باقي الأيام لكنني عرفت طريقي وحدي. قبل العصر برقع الساعة أكون قد دخلت. عامل المسجد يفتح المسجد ولا يصلي فيه. قد أكون أول الداخلين أو ثانيهم بعد الحاج مصطفى. والحاج مصطفى رجل كالعملة المعدنية ذو وجهين متناقضين لغيرها لكنها تظل شيئاً واحداً لا يشعر بالتناقض. فالرجل صاحب أكبر محل "لانجيري" في الجوار. وهو صاحب أكبر زببية صلاة في نفس الوقت. الرجل لا يبيع الخمر بالطبع والنساء العاريات في فاترينته هم مجرد "مانيكانات". لكن هل معنى هذا الإباحة؟ وكان رأيه هو وفتواه "أن وماله". لكن أهمية الحاج مصطفى كانت لا تكمن فيه بل في ابنته ندى! كانت ندى سبب فساد جيل بأكمله. وكانت محور حديث الجميع مع الجميع في جميع الأوقات وجميع الأماكن. في الحقيقة كانت كذلك سبباً في امتلاء قاعات الدرس التي تختار أن تذهب إليها. حتى أن ثمة إشاعات حول أنها تأخذ تلك الدروس مجاناً مقابل حضورها الثمين. ندى أميرة ولها وصيقات. شلة لا يتمالك مراقق واحد نفسه أمامها. بل الشباب كذلك. شائعات كذلك عن الضابط الذي تقدم لها. والدكتور والمهندس. لكن كالعادة لا شيء مؤكداً عن ندى غير جمالها.

كيف أتى هذا البغل بتلك الغزال؟

يقولها لي عبد الله مغتاضا حين يقابلني خارجا من الجامع وخلفي الحاج مصطفى. أنهره ثم أظل أتساءل في سري أنا الآخر ثم استغفر الله عن تفكيري أنا كذلك. أعوذ بالله. ندى!

وكانت ندى معي في دروس العربي والإنجليزي. ومما ميز ندى بالفعل وجعل منها الشخصية الفاتنة بجانب جمالها، قوتها وتفوقها. كانت ندى إذن الأولى على مدرسة البنات كذلك. ما أن يسأل الأستاذ سؤالا حتى ينظر لها الجميع. البنات يمتلئن غلا وحسدا، والذكور انتظارا لحركة رأسها وهي تهزها فيهتز معها شعرها الفاحم الطويل ثم ترفع يدها البيضاء طويلة الأصابع والأظافر ثم تقف بوسطها الذي لم ينقص سنتمترا ولم يزد سنتمترا وربما كان حظهم جيدا فتكون مرتدية البنطال الأزرق فهو أضيق بناطيلها. ولأصحاب الرؤية الجانبية مزية خاصة إذ يرون جانب صدرها الناهد خاصة لو كانت ترتدي "البدي" الأحمر. وبعد ذلك تقول بصوتها الأنثوي الغاوي الإجابة التي لا يلتفت أحد إليها فقط ينتظرون بسمتها بعد أن تنتهي. لذلك أقول بصراحة أن حتى الاسئلة السهلة لم يكن أحد ليرفع يده في حضورها علما ترفع هي ونشاهد العرض. كانت مشكلتي مع هذا كله أنني كنت محبا للغة العربية. متفوقا فيها بالذات. وقد علمني شيخي ما علم. وحين كنت أرفع يدي، أحرم الجميع من رؤية ندى. لذا كادوا يضربونني ذات مرة حتى انتهيت وبقيت مثلهم أسمع ندى، غير أنني لا أنظر.

علمونا في الكلية ألا ننق إلا بأنفسنا وقادتنا وبيدأ الشك التدريجي من مرؤوسينا داخل الحياة العسكرية ليتضاعف حين يصل إلى الحياة المدنية. علمونا أن المدنية هي مجرد صيغة عصرية من الرفاهية. وأن العسكرية ليست مجرد شرف بل هي الأصل، هي الإنسانية وما عداها محاولات بائسة للحياة بلا جدوى. الحرب ستظل موجودة أن لم يكن في الأرض ففي القلب. السلام لا وجود له إلا في الجنة فهي دار السلام وما عداها دار حرب. لذلك فالعسكرية شرف وإيمان. والإيمان يحتاج أتباعا مخلصين هم العسكريين فقط. هم الذين يتحملون ويهتدون. هم الرجال، والرجال قليل. فالعسكرية شرف وإيمان ورجولة. لذا يتفهم احتقار العسكريين للمدنيين. ولكن طول أمد الركود لعشرات السنين، يفقد العسكري جوهر ما سبق إلا قشوره. هذه حقيقة عرفتها بعد التخرج. وقد صار من الممكن أن تخرج من الجيش دون إطلاق رصاصة. وإذا كان هذا هو المستقبل المنتظر فما جدوى الجيش من الأساس؟ هكذا يتشكل وعي الفرد العسكري من جديد. لم يعد إذن التدريب جل همه. لم يعد يفكر في الحرب بل ماذا يفعل في الإجازة فترة وجوده في الخدمة، كيف تمضي بسلام دون تعكير الصفو. وهذا يتعارض بالطبع مع كيف تمضي دون ملل. فلكي لا تمل في الجيش عليك ببعض الأعمال ولكي لا تشعر بالمشقة فلتكن أعمالا وهمية. ولا تقوم أنت بها. لذا فإن كنت في رتبة وسطى فأنت تؤمر بأعمال وهمية ممن هو أعلى وتأمر بأعمال وهمية لمن هو أسفل، سلسلة أنت ترس فيها. هكذا يصير هدفك ألا يتعكر الصفو بأوامر وهمية من الأعلى وفي نفس

الوقت يمضي الملل بأوامر وهمية لمن هو أسفل. ربما لأنني لم أدخل الكلية بحثا عن رزق أو سلطة، فقد ظلت قناعاتي ثابتة وإن اهتزت ثقتي بنفسي وقادتي. أبي ينتمي إلى المدرسة القديمة وما زال يملك شرف العسكرية. هو من حببني في الأمر طفلا وشجعني عليه شابا. لكن الأمور اختلفت بعد التخرج. كنت قد استلمت عملي في أحد مراكز قيادة دفاع العاصمة مجاملة لأبي اللواء السابق. لكنني كنت أقرب إلى المجندين. مجرد منفذ للأوامر، لا رأي لي ولا سلطة. رأيت من الأمور ما ناقض كل أفكارني. إشتكيت لأبي فأمرني بالصبر إلى أول ترقية والتي ستبعدني عن روتين العاصمة إلى إرتجال الصحراء. الصحراء الممتدة أمامي الآن من شباك الغرفة الجانبية لا يفصلني عنها إلا سور قصير وبضع مبان. من هذا الشباك أرى "ميس" العساكر وعنابرهم ومن الشباك الآخر المخازن وسكن الضباط. مكان بائس زاده بؤسا ظلم وروتين قررت أن أغير منهما ما أستطيع. وعندما دق الباب عرفت أنه جمال.

-صباح الخير يا فندم

-صباح الخير يا عم جمال

-صاحي بدري. الملازم سيف يصحى الظهر

-إن شاء الله دايما بدري

-ابتسم ابتسامة قصيرة وكأنه لا يصدق.. غدا يفعل

-الطابور اتعمل طبعاً

-طابورين يافندم 7 و 9

-الغي طابور 9

-نعم؟

كنت لا أنظر اليه بينما أنظر ليومية أوامر الوحدة التي قدمها لي. لحظات من الصمت ثم رفعت رأسي.

-فيه عندك مشكلة
-يا فندم الطوابير نظام عام. وواجبة. ومصدق عليها من قيادة
المنطقة وقيادة السلاح.
قلت بلا مبالاة:
-دول قيادتي أنا، أما أنت فأنا قيادتك
-لكن.
-أنت حضرت طابور 7؟
سكت. نظرت له بانتصار.. وقلت
-مع أن أوامر القيادة بانك تحضر أنت وكل الوحدة
-نحضر في طابور 9
-ها خليه 7
لحظة صمت ثم سألته وقد انتبهت اليه
-انت عارف الحكمة من الطوابير؟
قبل أن يرد قررت الإجابة بدلا عنه
-استيقاظ انضباط تمام. كفاية طابور واحد ليهم وخليه الأبركر
هيبقى أكثر انضباطا للوحدة. الوحدة كلها.
-سبعة بدري علينا يا فندم
-هل نسيت أننا في جيش. مش العساكر بس.
سكت وأعطاني ورقة الإجازات سيذهب هو وعبد العظيم
وسيف ويأتي بدلا منهم إثنان من ضباط الصف والملازم أمجد.
ترى هل سيأتي معهم الرائد أيمن؟

لا بأس للمرء أن يروّح عن نفسه قليلا بالتسكع في الكلية أو الجلوس على السلاّم أو تناول ساندوتشات اللحوم والدجاج ولو على الإفطار. لكن الجديد بالفعل والمثير بالنسبة لي، كان الإلتحاق بإحدى الشلل التي تتشارك التواصل بكل السبل. يجلسون سويا يتناقشون سويا، يأكلون سويا، حتى حين يرجعون بيوتهم لا ينفك التواصل. فالإنترنت يجمعهم ومشاركة الصور المضحكة لبعضهم يزجي أوقاتهم. وكانت الصورة السائدة لدي والتي قوّتها وجهة نظر أبي، أن هذا الأمر محصور بين أراذل الطلاب وأفشلهم. لكنه لن يصدق لو عرف أن الشلة الأكثر مرحا هم أوائل الكلية. كانوا من أهل العاصمة وبالتالي أكثر تحررا، شبابا وبناتا. كانوا بالطبع ينبذونني من قبل ولا أستبعد سخريتهم السرية مني. وفي الحقيقة ظننت للوهلة الأولى أن الفرصة لو اتاحت لي بالعكس لنبتتهم. فلم تكن ثقافتني تسمح قط بهذا الاختلاط المريب. لكن الأمر تغير حين تغيرت. تغيروا نحوي وتغيرت تجاههم. وزادت حدة الأمر حين أعلنت النتيجة المفاجئة. وحين كنت جالسا ذات مرة تحت مظلة في الحديقة الواسعة التي ازدانت بزهور فصل الربيع في أول "الترم" الثاني. وكنت في الوقت الفاصل بين محاضرة ومجموعة عملية. سمعت التحية.

-هاي يا رامي

نظرت، فاذا بها سلمى. وكانت زميلة لي في المجموعة العملي تسابق أصواتنا بعضا سواء في السؤال أو الإجابة. غلب فضولي عجبني فرددت مرحبا.

-أهلا

-عامل أيه؟ ليه قاعد لوحذك
ارتبكت قليلا وتذكرت وحدتي التي لم تصلحها الصداقات
العابرة والزمالات المحكومة بالمصلحة.
-أبدا. ما حدش قاعد معايا
ضحكت من تفسيرى الماء بالماء
-أيه مالکش اصحاب قدام
ابتسمت وقد تذكرت بالفعل بعض أصدقائي الذين حادثت
أحدهم بالامس فقط. لكنها محادثة تليفونية قصيرة انتهت بسرعة
حين لم يجد أحد منا ما هو مشترك يتحدث عنه.
-ليا بس في بلدنا
-بتروح وتيجي كل يوم
-لا أنا خلاص سكنت هنا
-انا قلت كده برضه..
وقبل أن اسألها عن سر تخمينها الأمر. وجدتها تنادي من
خلفي من هم هشام ومعتز.. التفت بدوري لأجد من أعرفهم شكلا
وليس شخصا. اقتربوا وسلموا على سلمى أولا ثم عليّ. عدتها
إهانة أن يسلموا على النساء قبل الرجال فضلا أن يسلموا على
النساء أصلا ثم تذكرت أين أنا.
-مش عارفين رامي
-آه طبعا. رامي الأول، مين قده
قالها هشام وكأنه يعرفني منذ سنين بهذا التبسط. لكني ابتسمت
-طب ما أنت التالت
-قالتها سلمى بدلا عني فرد
-وأنتِ التالت مكرر
-وانا يعني وقعت من فوق القفة. ماله الخامس؟

قالها معتز لأعرف هكذا مراكزهم جميعا. وعلاقتهم الوطيدة التي اكتشفت فيما بعد أنها بسبب تخرجهم من إحدى مدارس اللغات، لكن الفضول أخذني لأسأل عن كنه من بالترتيب الثاني والرابع.

-الثاني يا سيدي واحدة في حالها كده.

-لابسة خيمة

قالها معتز مقاطعا سلمى التي ردت متظاهرة بالتأثر.

-عيب يا معتز.

نظر لها معتز طويلا وقد قرأت نظريته التي تعابير سلمى ربما بمقالات لها سابقة عن زميلتها تلك التي تتظاهر الآن بالدفاع عنها. لم أحاول التدخل رغم أن الموقف استفزني كما أن هشام تدخل مغيرا الموضوع

-الرابع بقى واد غتت.. ماتفهملوش هو ايه.

وقبل أن يكمل ينظر في ساعته

-احنا اتأخرنا ورانا سكشن في المبنى الثاني يا دوب نلحق.

يلا يا معتز

-يلا، سلام يا جماعة. ممنشك يا سلمى صحيح في بوست

ابقي اقريه.

يشده هشام من يده وينطلقوا بينما تظل سلمى مبتسمة وهي تنظر في أثرهم وتقول:

-مجنون

ثم تنظر لي وقد تذكرتني بعد أن نستني ربما.

-مش هنطلع سكشننا احنا كمان!

يوم شتوي هو من أيام نصف العام. وهذا يعني أننا قد صرنا في مرحلة وسطى بين لعب أول الدراسة وجد آخرها. وهي مرحلة تمتاز بالملل. أذهب للدرس النهاري مع عبد الله. لا نزيغ فانا أحب اللغة العربية وهو لا يجد شيئا يفعله. مبكرين نصل، ويختار عبد الله مكانا بعناية.

-بتعمل ايه. مش مكاننا

-ده بتاع الواد حلیم. لابس نضارة قعر كوباية

-وده معناه ايه.

-معناه خسارة يقعد قريب من ندى وكده كده ميشوفش. يسبيلنا

إحنا المكان.

أجلس بجانبه من ناحية الحائط. كان المكان مقسما قسما للبنين وآخر للبنات. وكل قسم خمس دكك طويلة. محمود اختار الدكة الثالثة بالطبع وطرفها ناحية اليمين أي ناحية البنات وحيث تجلس تماما ندى على طرف الدكة المقابلة. فهي تأتي متأخرة دائما. بدأوا يتوافدون وجاء حلیم فلم يتكلم وجلس في الأمام. لكن من اعترض كان الشيبيني الذي كان يجلس مكان حلیم في غيابه. فاعتبر نفسه أحق من محمود في اغتصاب المكان حتى بوجود صاحبه. لكن الأمور عدّت بحضور الأستاذ وأمره بفتح الكتب معلنا أن حصة اليوم.. نصوص.

وكانت تلك لحظة دخول ندى. ولا بد أن عبد الله لعن حظه. فقد كانت تردي جاكيتا طويلا دارى مفاتها فوقا وتحتا ولم يبق غير شعرها التي صفرتة كذلك. سمعت غمغمته المتدمرة بينما

هي تجلس والاستاذ يطلب الهدوء وأخذ يقرأ النص المقرر من القرآن الكريم

(ولا تنابذوا بالالقباب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان)

ثم لاحظ أن هناك كلاما دائرا فقال:

-هتسكتوا ولا لا. طب حد فيكو هيعرف يجاوب السؤال ده.

سكتنا مترقبين فقال:

-ماهو اعراب كلمة الفسوق في الآية الكريمة؟

وكان على رؤوسنا الطير بقينا صامتين. الحقيقة أنني بقيت صامتا بحكم العادة غير أنني كنت أعرف الإجابة. والحقيقة التي عرفتھا فيما بعد، بعد أن رفعت ندى يدها الزجاجية التي كانت تلبس جوانتيا نصفيا يغطي راحة كفھا ويبرز أصابعھا، أنها أيضا رفعت يدها بحكم العادة لكنها لم تكن تعرف الإجابة. وحين قالت أن الإعراب بدل. تغير وجه الاستاذ الذي تعود على اجاباتها الصحيحة. وقبل أن يخبرها بخطئها كانت يدي المرفوعة تجعله يشير لي:

-ليك رأي ثاني يا محمود

-خبر يا استاذ لضمير محذوف تقديره هو.

-برافو عليك. دي الإجابة الصح.

لكزني عبد الله مهنئاً بينما قال أحدهم شيئا لم اتذكره لكن ما تذكرته حقا كان نظرة ندى، التي لعلها النظرة الأولى من عينيها وليس إلى عينيها.

الرائد أيمن كان مثالا للشخصية الثعبانية التي لا تستطيع أبدا الحكم عليها. هل هو طيب؟ هل هو شرير؟ هل هو سمج أم ظريف؟ والأهم هل هو يحبك أم يكرهك؟ ورغم انه المفترض ذو حيثة تقنية إلا أنه كان أقرب للعسكرية. بدا هذا في لبسه الميري والذي يشاغل فيه الكثيرين. والتحية العسكرية التي تؤدي له كناية عن تنبيه مسبق منه ودرايته كذلك بالقوانين العسكرية التي ناقشني فيها، والأهم حماسه لها والتي ظننت أنها تخالف منطقية قوانينه الهندسية لكنه يقول العكس.

-الهندسة والعسكرية متفقين مع بعض أكثر مما تتخيل.

قالها لي وهو يشرب الشاي مع السجارة الفاخرة.

كنت أكاد أكمل الشهر في الوحدة دون أن أراه. قضيت أسبوعين متواصلين كي أنتظر باقي أفراد الوحدة وأعرفهم خاصة الملازم أمجد وضابط الصف أمير -وقررت أن أستبقي في أسبوع ولايتي معي جمال والملازم أمجد المطاوع وأترك قيادة الوحدة في أسبوع اجازتي لسيف الشرس ومعه أمير-. ثم إجازة أسبوع ثم عدت في أسبوعي الرابع الذي كاد ينقضي وإذا بجمال يقدمه لي، دون أن يخبرني قبلها بمجيئه. رغم أنني أعلم أنه يعرف بوصوله من قبل. كان أسمر قصير القامة ذو إبتسامة مرحة لزجة في نفس الوقت وثقة وأريحية في عينيه كأنه في بيته وسط أولاده. حسنا، كان الفارق بيننا رتبة واحدة، كما أنني لازلت القائد. وإن كنت ذوقيا تركت كرسيي وجلست على الكرسي المقابل له من خلف المكتب. بعد التحايا والترحيب وسؤال عن خلفيتي أطلق جملته الأخيرة فرددت:

-ازاي متفقين

-اللاتنين ليهم قوانين صارمة محددة. ثم أن الارقام يا عزيزي هي اقوى مثال للمقامات والرتب.

شرب رشفة من الشاي ونظر إلى النافذة ثم عاد اليّ بحماس:
-التسعة أكبر من السبعة والسبعة ذات الاس 2 أكبر من نفس السبعة من غير أس. يمكن تعتبرها أقرب للنجوم على الاكتاف..
البسط فوق والمقام تحت. الرقم تحت الجذر مابيتمردش. كل واحد له دوره الثابت وحجمه المعروف.

كلامه العميق بدا لي سطحيا ومتناقضا لكني قلت له مداعبا
-وايه اخبار الصفر.

ضحك وقال -كلنا اصفار يا عزيزي.. مالناش قيمة إلا ببعض قالها بلغة وعظية مملّة، ثم فجأة هتف متحمسا.
-ده مبدأ سياسي كمان.

-الكلام في السياسة ممنوع في الجيش يا أيمن باشا.
قلتها ضاحكا لكنه لم يلتقط الخيط وظن أنني أوبخه
-وأنت اخترقت كمان قوانين كثيرة في الجيش.
طبعا يقصد التعديلات في الوحدة فلا بد أن جمال قد عبأه نحوي
-صدقني كل هدف في أن مقاصد تلك القوانين تتحقق.
أشعل سيجارة أخرى وقال:

-كنت فاكّر وأنا صغير أن الخط المستقيم اللي ليس له بداية ولا نهاية والشعاع أبو بداية من غير نهاية حقيقة. تخيلت وجودهم في الفضاء ولما سألت اكتشفت أن مالهمش وجود.
نفث دخان السيجارة ولما رأي غير فاهم قال:

- الامثلة الهندسية كانت مجرد توسيع مدارك وتخيلات فرضية. تشبه القوانين العسكرية. شفت، تشابهات كمان اهي بين الهندسة والعسكرية.

أحسست بسخف ما يقول.

-تقصد القوانين هنا افتراضات.

-لا المقاصد. القوانين في الواقع هي المقاصد في حد ذاتها.

بدوت غير مقتنع فأخبر جمال بالانصراف ثم اقترب مني بوجهه وقال بصوت أكثر انخفاضاً.

-هاقولك حاجة. مثال هيفيدك في الحياة العسكرية. كانت حديقة. منسية بمعنى الكلمة. بلا أي أهمية في منطقة عسكرية أساسية. وفي زيارة للقائد العام في مرة واللي كان من المفترض فيها متابعة بعض التدريبات أصر على جولة تفقدية على الحقائق. ساعتها وبخ قائد المنطقة متهمه بالإهمال وأن الحقائق هي واجهة القوات. ولما مارضيش بالكلام تم تغيير القيادة كلها. جيت أنا في الحركة الأخيرة. كانت أول حركة ليا. وكانت مهمتي الحديقة دي. تابع التعجب على وجهي للحظة ثم أردف:

-هل هتسألني ما علاقة ده بالهندسة أو علاقته بالعسكرية والله.

-لسه ماکملتش. مش دي المعضلة كلها ده الجزء الأول. تعرف الحديقة دي كانت مكونة من أيه؟
-أيه؟

-من عشرين من أشجار كافور وبينها حشيش كثير. تعرف إيه كانت مهمتي؟
-إيه

-اختار بعض عسكر الحملة عشان يلموا ورق الشجر المتساقط يوميا وحرقه. في الحشيش. وبالتالي هيقلم الحشائش تلقائياً. ماكنش عندنا جهاز تقليم الحشائش. دي كانت العناية بالحديقة وكانت الواجهة عبارة عن أشجار بتوقع ورقها وحشائش محترقة. لكن احنا كنا بننفذ أمر.

نظر في ساعته معلنا أن العصر يشارف الإنتهاء وأنه فقط
سيفحص الجهاز روتينيا ويذهب إلى السكن.
قلت له:
-هاحصلك.

ر

لم يكن اندماجي كاملا ولم يكن انضمامي رسميا لشلة الأوائل.
هناك بعض الحرج وهناك بعض الاختلاف كما أنني عرفت أن
شلال الأصدقاء تتشابك وتتعدد. فالعضو في هذه المجموعة ضيف
مرحب به في مجموعة أخرى. وبعد أن ظننت أنني وصلت
لمبتغاي بالالتحاق بشلة متفوقة من العاصمة -بعيدا عن شلال
المغتربين وسكان المدينة الجامعية-. وجدت أنه مازال أمامي
سعي حثيث لكنه بدأ بدعوة سلمى لمعرض أسرة الثورة. وسلمى
وإن كانت ليست عضوا مؤسسا بتلك الأسرة لكنها كانت عضوا
ورقيا لإستكمال العدد.

-باحضر. افرج.. اتصور. اتكلم عل الفيس. بس ده اخري.
كنت مازلت متعجبا من فكرة الأسرة، ومن مغزى الكلمة
وتطبيقه.

-هما يعني شلة.

تضحك وتقول

-لا أسرة يعني مجموعة نشاط. بص. زمان كانوا بيعملوا
الأسر دي عشان الرحلات والذي منه.

-ودلوقت

-لاااااا. عشان نشر أفكارهم ويتكلموا ف السياسة شوية والدين
شوية والبلد شوية
-وأسرة الثورة؟
-اشتراكيين

-هو لسه فيه اشتراكيين؟

هكذا سألت ببراءة. كانت معلوماتي أن الاشتراكية هزمت بعد
سقوط الاتحاد السوفيتي. والرمز الشائع للأمر الذي لم أفهمه إلا
من قريب، هو سقوط سور برلين. في الحقيقة كانت معلوماتي
ضحلة ولم أهتم قط بتلك الأفكار التي ظننتها خارج نطاق الفكر
الصحيح.

-الموضوع معقد عن كده. اللي اتهم سياسات السوفييت
الخاطئة اللي تسترت وراء الاشتراكية. ثم أنت عارف فيه كام نوع
من الاشتراكية؟

لم تكن سلمى من صاغت تلك الجملة. لكن قالها لي مؤمن
الذي بدا مؤمنا جدا بهذا الكلام وبدا ذلك من حماسه التي لم يعطها
قط لدراسته. فمؤمن هو طالب من الفرقة الأكبر منا لكنه يعيد
سنته الدراسية الأولى معنا بفأل سيئ للغاية. كان واقفا في
المعرض بينما عرفتني عليه سلمى والعكس. طرحت عليه فكريتي
فرد عليها كما سبق وحين بدوت غير مقتنع قال:

- ثم أنت شايفنا يعني بندعو للاشتراكية. احنا بندعو للثورة
الأول بعد كده يا عم عنك ما بقيت اشتراكي.

كنت بالفعل قد طفت بالمعرض.

-تدعون إلى الحرية وهي موجودة. إلى الثورة وهي قامت.
إلى العيش ولسه عليه شوية بس في الطريق.
ضحك وقال لسلمى:

-اخينا ده اما ببشوف تلفزيون كثير. أما تبع الاخ اللي هناك ده.

أصابني تجاهله توجيه الكلام لي بالغيط وإشارته للأخ بالفضول الذي غلب فنظرت لأجد أحدهم خفيف اللحية يبتسم وهو يحدث أحدهم ويبدو عليه الحماس في الجدل.
-مقرر أسرة الأمل وروح كده زي المسكين اللي بيجادله ده
قله انتو مش فاهمين حاجة وحكومتمكم فاشلة وشوفه يعمل فيك إيه.

وجدت سلمى فضولي فقالت:
-هو ده بقى الرابع اللي قولنا لك عليه!

م

الخلاف في المسجد كالخلاف في أي مكان آخر. نفس الدوافع نفس الأهداف. دوافع إختلاف الفكر ودوافع السيطرة. لكن في العلوم هناك قوانين تطبق على الأجسام الكبيرة لكن ليست على متناهية الصغر. الأمر مختلف في أمور الإجتماع. فغالبا ما تفعله الدول تفعله الجماعات يفعله الافراد. هكذا لم يعدم الحاج مصطفى انتقاء شركاء له وحلفاء مقابل الشيخ عمرو إمام المسجد الرسمي المتقوي بتابعيه من غير أبناء المنطقة. والحاج مصطفى من أعيان المنطقة صاحب عمارة مجاورة للمسجد وصاحب أشهر محل للبضاعة الرائجة في المنطقة. ويعتبر المسجد جزءا من منطقة نفوذه. وهو يلعب الأحوال التي غيرت خطة الائمة لتأتي

بمن ليس على الهواء. فالحرية التي انطلقت في البلاد أفسدت كل شيء وغالبا ستكون الذريعة لتقييده هو. لأن من استغل الحرية هم من لا يريدون الحرية. يقولها كثيرا وإن كنت أظن أنه التقط تلك الجملة بالذات من قنوات التلفاز. أما الشيخ عمرو فهو ممثل- عنده- لهؤلاء منتفعي الحرية وكارهيها. وقد تجسد ذلك في ثاني خطبة القاها الشيخ عمرو حين استلامه إمامة المسجد وهي ذات الخطبة التي قررت فيها إتباع الشيخ عمرو. كنت وقتها أحضر الجمعة فقط مع والدي. ولاحظت الشيخ الجديد الذي بدا مرتبا في الخطبة الأولى واختلاف بدا عن سابقه. أعجبتني فيه عقلانيته في شرح أمور غيبية. هذا المزيج العجيب لا يقدر عليه إلا متمكن. وكجديد على مدارس الدين أعجبت بهذه المدرسة وأول ممثل لها. لذا انتظرت الخطبة الثانية، والتي اثارت الجدل. كانت بداية سلسلة بعنوان (انتوني مسلمين). وبدء الخطبة بشرح الآية (قل أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين). ولم ينته من الشرح حتى انتهى من الخطبة. فهو لم يترك كبيرا أو صغيرا في الحياة إلا وأدخله في باب الحياة لله. بما فيها العمل والتجارة وبما فيها المظهر والمخبر وبما فيها المنطقة الأكثر شائكية: الحكم. وأنهى خطبته على وعد اللقاء في الجمعة التالية بشرح الآية التالية (بذلك أمرت وأنا أول المسلمين). وحين خرجت من باب المسجد لابد أن الحاج مصطفى استغل تحية أبي العابرة له ليستوقفه ويسأله عن الإمام الجديد.

-ما تعرفش منين يا شاهين؟

-لا والله بس شكله من الأرياف.

-آآآه

-بس شكله دارس وفاهم.

-شكله من اخوانا البعدا.

-لا ياراجل ده متتور ما شاء الله عليه.

-أمال أيه موضوع المسلمين ده من أولها.. هو إحنا يعني كفر؟

-وانت واخذ الكلام ليك ليه؟

في الحقيقة أظن أن الكلام كان له بالفعل. له ولغيره بالطبع. لابد أن الشيخ يوجه كلامه إلى المسلمين فليس هناك كفار يسمعون على ما أظن. ولابد أن الحاج مصطفى بالذات يحتاج أن يخاطب بهذه الخطبة. فبالتأكيد تجارة الحاج مصطفى ليست لله. أو على الأقل مظهرها. فلو أخذنا بحجته الدائمة أنه لا غضاضة في بيع تلك الملابس لتلبسها المرأة لزوجها، وبالطبع لن نأخذ بمبالغته حين قال أنها -ملابس أهل الجنة-، وبالطبع يقصد الحور العين، لكن هل عرضها المثير هذا يدل أن التجارة لله. هل عرضها في شوارع المسلمين كصور إباحية يدل أن الشوارع لله. بالطبع لا. لكن القضية لي لم تكن كقضية الشيخ. رمزية المجتمع والإسلام لله أنا عندي مشكلة أخرى تماما. لكنني بالطبع لا أستطيع الكلام، أو البوح وإلا صرت مراهما ساذجا. حسنا سأقول سري لنفسي ثانية. أنا تستثيرني تلك المانيكانات وما تلبس من ملابس داخلية مثيرة. مثيرة جدا! لكن بالطبع الرجال لا تستثيرهم تلك الأمور. لكن لحظة اذن لماذا توضع تلك الملابس هكذا. للنساء. ولماذا تلبسها النساء. للرجال! عندما أفقت من تفكيري كنا قد وصلنا إلى المنزل. وكنت قد قررت طرح السؤال على الشيخ عمرو! الورقة التي وصلت للشيخ عمرو يبدو أنها لاقت هوى في نفسه. بالطبع لم أذهب له بنفسي وحببت أسلوب المراسلة عن بعد. بعد الصلاة مباشرة من الجمعة التالية أعطيت الورقة الملفوفة للذي أمامي ليوصلها للشيخ. كنت في الصف الثاني لكن ما أن سُلمت رسالتي حتى رجعت للخلف حيث موضع كراسي كبار السن وحيث يوجد الحاج مصطفى وإن لم

يكن هو من كبار السن حقاً. من بعيد لمحت بسمه الشيخ ثم طلب الميكرفون فحمد الله وتلا السؤال.

-يسأل سائل عن حكم وضع المانيكانات العارية بملابس النساء الداخلية في الشوارع وأليس ذلك فتنة للرجال غير لائق من فعله من مسلمين. وإجابة السؤال أن نعم هي فتنة للرجال وأن نعم إنه فعل لا يليق بالمسلمين، ولكن الأهم في رأيي أنه إمتهان للمرأة وترسيخ للحيوانية التي ليست حراماً ولكن ليست مما يفتخر به الإنسان وليست مما كرمه بها الله.

سكت لحظة اعطتني الفرصة لأنظر إلى الحاج مصطفى الذي كانت صوابه تاكل المسبحة أكلاً. وبدا أنه يكاد أن يقوم ويرد وربما يسب. لولا أن أكمل الشيخ وقال:

ومن دور الحكومات والشرطة -لو كانت حقاً مسلمة- أن تزيل تلك المنكرات وهو ما كان يسمى قديماً بالحسبة.

هنا قام الحاج مصطفى، وقد وجد بغيته:

-هتكفرونا وتكفر الشرطة كمان.

التفت له الجميع وهو يواصل التقدم

-ما هي اللي غلطانة هي اللي سابتم.

كان قد وصل للشيخ الذي بقى مبتسماً

-هلا رددت أنت على السؤال

قالها وأعطى الورقة للحاج مصطفى الذي ارتبك بينما قال له الشيخ.

-بص كده للخط إنه خط مراهقين، إلا تخشى عليه من الفتنة؟

أليس لك أولاد؟

في الواقع الحاج مصطفى له بنات هن الفتنة ذاتها!

الأمر الذي فاتحني فيه الرائد أصابني بالأرق. بسجارة نادر ما أشتهيها وقفت في شباك غرفة السكن أفكر. كان باديا أنه فخ أو مجرد اختبار توصل اليه بعدما وجد تمسكي بارائي. أي ورطة يريدني فيها. السور المقابل للغرفة عليه المجندان فتحي وشريف. كانا يتمازحان بصوت عال وحين لمحني شريف اشار لفتحي فسكت وانتبه. أحسست أنني لست وحيدا أو حرا فاطفأت سيجارتي وقررت التفكير على السرير لتصلني ضحكاتهم من جديد. ضحكت على سذاجتهم وقررت التفكير بسذاجة مماثلة. ويبدو أن ذلك كان عقاب أيمن لي. رمى لي الطعام ردا على مثاليتي المفرطة كما أسماها. حكى لي القصة قبل رحيله لتعجزني ولم يفكر قط أنني قد أفكر فيها لأجد حلا. والقصة عبارة عن قطاع طريق أمام وحدة عسكرية. وحدة عسكرية هي وحدتنا نحن! نعم هم هؤلاء الذين استوقفوني في المرة الأولى ثم صاروا يميزون سيارتي فيكتفون بالسلام. قانونا، الشرطة مكلفة بالتعامل. لكن أين الشرطة؟ قال لي أنهم حين يأتون يختفي الكمين ببساطة. مما يعني أن ثمة اتفاقا ما. لكن بذكر القانون، هاك الدستور الذي فيه الجيش حامي حمى البلاد من الخارج ومن أخطار الداخل. وأي خطر مثل قاطع طريق على بعد 100 متر. على مدار ثلاث سنوات لم يفكر أحد من قيادات الوحدة فض الكمين بل تعاملوا معه بأريحية. وثمة تفاهم حول مرور عربات الوحدة بحرية. أما عربات البضائع القادمة من الأراضي المستصلحة نحو العاصمة فلا يكفيها دفع فلوس الدولة في بواباتها وضرائبها بل أيضا تدفع للمرتزقة الذين بقمة البجاجة صاروا يسمون حراس الطريق.

الغريب أن تلك العربات نفسها تأقلمت وصارت الإتاوة تزيد بنسبة، تراضيا بين الجميع. مشكلة كتاك، كيف لي أنا أن أتصرف؟ إلا تحتاج لمن هو أعلى لمن هو في البسط خارج الجذر وليس أنا أيها الرائد؟ كان الغد اجازتي قررت أن أمر غدا قبل العودة على قيادة السلاح القريبة من المكان. هناك العقيد طه سليمان. سأخبره.

-مش عايز اي مشاكل. فاهم ولا لا؟

قالها دون أن اتكلم. قالها دون أن ينظر، دون أن يسلم. فقط كان رده على قلبي صباح الخير. هنا أحسست بجنوني حقا فيما أتيت أكلم القائد العصبي الذي يملك أكثر من 12 سرية. كي يقوم بعملية جنونية غير مطلوبة منه. انصرفت سريعا وكالعادة أحسست بالندم بمجرد الانصراف. لماذا لم أخبره. لماذا لم أرح ضميري. لكنها في الواقع عملية راحة بال فانا أعلم الجواب قبل الدخول. لكن هل حقا سيرتاح بالي؟ سيرتاح ومازال منظرهم وهم يأخذون -حسنتهم- من العربة المحملة أمامي ثم يسمحوا لي بالمرور بترحاب شديد بل أعطوني مشروبا غازيا كأني شريكهم في الإحتفال. هبطت الدرج ومرت بحديقة قبل أن أصل لسيارتي. وحين نظرت لها بطرف عيني ورأيت اشجار الكافور والحشائش المحترقة تذكرت حديقة الرائد أيمن التي تبدو قصة تتكرر كثيرا! بكل تفاصيلها بما فيها هو. تذكرت ملامحه المستمتعة وهو يحكي لي قصة قطع الطريق كأنه وضعني في مصيدة. أرني الآن ما ستفعل يا صاحب المقاصد. حسنا لا أعلم ما سأفعل!

ازداد اهتمامي بمعترك السياسة مع مللي المتصاعد من المذاكرة ومع الأحداث المتصاعدة بالفعل في البلاد التي تغلي بين أطراف عدة وبين معارضة مؤمن وثورته واستفزاز عمار وجداله. وعمار هو الرابع الذي لا يطيقه أحد لكن قلبه يسع الجميع. هكذا قالها بمسرحية يحسد عليها. وكانت هذه من أولى كلماته التي قالها لي حين جاء هو يتعرف عليّ. وحينها عرفت لماذا لا يطيقه أحد.

-أنا عارف أنه أكيد قالولك عني كلام وحش عشان كده جيتلك احذرك. انت راجل الأول على الكلية اللهم بارك. ازاي تتضم لدول اللي نصهم راسبين.

لم أكن إنضممت. فقط كنت أستكمل نقاشاتي مع مؤمن وحين أتيت بسيرته رد عليّ:

-مؤمن. مؤمن ده حتى مالوش نصيب من اسمه.
وحين اخبرته أن لا يحكم على أحد بهذه الصورة الفجة قال -وهل فيه مؤمن ما يعتبش المسجد رغم أنه من صباحة ربنا لحد المغرب مشرف الكلية.

بالفعل كان مؤمن أول من يأتي للكلية وآخر من يرحل. لا يقرب مدرجا أو معملا. فقط يتكلم يأكل يرسم ويدخن. لم أره يدخل المسجد قط وإن كنت أنا أدخله باستمرار كثابت لا أتركه من أيام معيشتي في بلدتي الصغيرة. وحين طلبت منه أن يدعه من أفعاله الإيمانية ولينظر لأفكاره السياسية قال:

-بيتكلمو عن ثورة احنا اللي ضحينا ليها وحرية احنا اللي اتسجننا عشانها وحكم احنا اللي شايلين قرفه.

وحين واجهته بحقيقة أمرهم وفشل حكمهم وسذاجة فكرهم وكيف أنهم مجرد واجهة بدأ يتعصب ويردد كلاما غير مفهوم الدلالة أو السبب. حينئذ أدركت أن منه لا فائدة.
-مش هو بس. كلهم. شفت بقى الكارثة اللي البلد فيها. وهي ف عز سنين حريتها يمسكها الشوية دول.
يقولها مؤمنا بعدما حكيت له. فاهز رأسي متأثرا بينما يحكي لي الخريطة السياسية للبلاد. صارت إذن تستهويني السياسة. كما أنني وجدتها متنفسا جميلا أحصل منه على معارف ونشاطات ويكبح كبت المذاكرة التي تأثرت حقا. لكن ما جدوى المذاكرة من الأساس إذا صرت عبدا لها. ما جدواها إذا صارت أداة السلطة لكبح جماح الشباب؟ لست أدري لم ومتى صرت ثوريا. ولست أدري لم ومتى انضمت لأسرة الثورة. كنت قد أعتبرتها خيطا جديدا يربطني بحياتي الجديدة بينما خيط حياتي القديمة يواصل الإنفكاك.

م

-فرحانلي بشوية الشعر دول
يقولها أبي ونحن على مائدة الغذاء. نتوقف أنا وأمي عن الأكل بينما يكمل هو واخوتي الصغار الذين لا يفهمون. تنتظر أمي إليّ ثم تحاول تلطيف الاجواء.
-محمود كبر اسم الله عليه
لا يكثرث ويقول دون أن ينظر:

-شنبه وقلنا معلى لكن دلوقت يحلقه ويسيب دقنه؟

لا أرد ولا أمد ترد فإردف:

-وإرأئها طألعة مساوية.

أحسست أنى ساصب ندره على الطعام ففمت سربعا ودخلت
غرفتى مستعدا للدرس. بالطبع لىس التاريخ. كانت المرأة على
ضلفة الدولاب تلمع فى ضوء الشمس من الشباك المجاور. مرأة
بطول الدولاب وقفت أتأمل نفسى فىها. وقد زاد طولى واحتدت
نظراتى وشعثت لحاتى أو للدقة شعيرات لحاتى الغير مكتملة.
صارى هى أول ما تقع على عىنى فى وجهى. بعدما أرقنى
لسنوات حب الشباب وأرقننى تسريحة شعرى، بل وىا للنفاهة
أرقننى القشرة على الأكتاف. فى الحقيقة كنت وسىما للغاية.
جمالى كان حدىث البعض يوما ما وهو ما ورثته لأبى. كنت
فخورا بهذا وأحرص على مظهرى جىدا فى المرأة. كان الهدف
من قبل اختبار جاذبىتى. أما الآن فاختبار إىمانى من خلال لحاتى.
وكان كل شعرة جدىة بحسنة. وكان كلما زادت شعرة نموا نما
لى شجر فى الجنة! كانت الفكرة المضادة تقول: وهل الإىمان
لحىة وجلاب؟ فكرة زادنى نفورا منها أن كل قائلها قلىلو الإىمان
بالفعل وىتحدثون عن شروطه. لكن نفورى لم ىمنع صراعى.
أعرف أن الإىمان عمل قلبى -كما قال الشىخ عمرو- وأعرف أن
غاية التدىن الجوهر. لكن كى أصل إلى الجوهر دون المرور
على المظهر. كى أدخل إلى الداخل دون أن أفتح من الخارج؟
لكنى حىن أصارح نفسى أجد أنى لا أهتم كئىرا لقضىة اللحىة ولا
حكمها سنة أم فرض أم مصىبة. الأمر أقرب إلى تىمز ابتغىه.
وهدف أجدّه وأعشى له. وربما قدوة أراها فى الشىخ عمرو. الشىخ
عمرو! نظرت فى الساعة حىث الثالثة موعد الدرس الصورى
وموعد العصر حىث الدرس الحقىقى. وبالفعل حىن نظرت من

الشباك كان عبد الله في الإنتظار. أخذت أشير له. لم ينتبه. كدت أن أصفر له لولا تذكري أنني قد توقفت عن فعل ذلك فهذا يخالف المروءة. غيرت ملابسي سريعا وهبطت. توقعت تذمره المعتاد من التأخير لكنه بدا سعيدا وحين رأياني اقترب مني وعلى غير العادة احتضنني. ماذا اصاب هذا الأبله؟

-مالك يابني أنا لسه كنت معاك امبارح.

-بحبك أوي يا محمود.

-احبك الذي احببتني فيه.

ونظر إلى وجهي ومد يده يتحسس شعيرات لحيتي وامسك ما امسك اسفل الذقن.

-انت اتجننت

-حبيب دقنك اوي يا حودة

-انت هتقول فيه ايه ولا هاسيبك.

-تعالى اقولك واحنا ماشيين..

عبد الله كان معي بالأمس وحين تركني وذهب لدرس الجيولوجيا بالذات كي يرى ندى وصاحباتها مع شلته الفاسدة التي لا أطيقها. كل هذا عادي وطبيعي. حتى معاكستهم لهن طبيعي وردهن عليهم كذلك. لكن حديث ندى لعبد الله مباشرة سائلة اياه إذا كان هو صاحب (أبو دقن). وعندما رد عبد الله بفخر أن نعم قالت له بزم اعتبره محمود له مدحا:

-طب ما تخليك محترم زيه!

جاءت الفرصة بعد شهر تقريبا. وعلى عكس المتوقع وعكس الفطرة الإنسانية حماسي لم يفتر ونيتي لم تتوار. فقط هو الإنتظار رديف الصبر الذي حدثني عنه أبي كثيرا. بل حدثني عنه في الإجازة المنصرمة حين رأي مهموما كعادتي. لم يسألني قط عما يشغلني فقد اعتبر الهموم الشخصية شخصية أكثر مما يجب. وكان يكره من يسأله لذا لم يرد تكرار خطأ طالما كره الناس بسببه. لكن كانت جملته ليست استفهامية بل خبرية. مفادها بان كل شيء خلاف وجه الله زائل. أي أن الهم لن يدوم. وضعي المشين لن يدوم. تلك الغابة لن تدوم. تذكرت الأمر حين قرأت الجورنال أولا. كان صباحا عاديا في الوحدة. فطرت وانتظرت جمال متصفا الجريدة الواصلة توا مع الإفطار. كان خبرا فرعيا بالصفحة الأولى عن نية القوات المسلحة زراعة مليون شجرة ورد لتبعث البهجة والحياة للطرق وروادها. في البدء استخففت بالخبر وبل أضحكني العنوان. وربما ظننته مبالغة من الجريدة. لكن متن الخبر كان مستندا على تصريح رسمي. اذن فهل وزير الدفاع هو من يبالغ؟ عرفت الإجابة بعدها بدقائق حين دق جرس الهاتف المباشر. أي الهاتف المتصل بالقيادة مباشرة وذلك في نفس لحظة دخول جمال. أشرت له ليجلس ورددت.

-الو. ازي حال معاليك

-بخير يا حضرة النقيب

-خير يا فندم.

-مشروع جديد.

-الخاص بالزراعة

-آه. أنت متابع.
-الجورنال يا فندم.. أنت عارف عندنا الخبر بينزل ف
الجورنال بعدين يتنفذ مش العكس.
- معاك حق.. بس المشروع ده عشان يطبق عايز اكثر من
سنة

-تمام يافندم
-وخلال الشهر ده هيتم توزيع ربع مليون شجرة بس قبل ما
تتوزع عل الوحدات ممكن ما يوصلناش إلا 300 شجرة
-تمام يافندم
-عل العموم التحديد الدقيق ليس إلا.. المهم وانت بتصرف
تعيين الأسبوع ده تروح بنفسك وتأخذ نصيبك من الشجر.

-تمام يافندم
-مع السلامة
-مع السلامة. في سلام الله يافندم.
وضعت السماعة ونظرت لجمال. كان نائما تقريبا. مازال لم
يتأقلم على نظام الصحو والنوم الجديد. بل يبدو انه يظل سهرانا
حتى الطابور الأول وبنام بعدها.

-فطرت؟
سألته تلقائيا بينما أفكر في شيء آخر.
-آه الحمد لله.

فترة صمت استكملت تفكيري وحين خرجت منه كدت أن
أسأله عن دفتر الأوامر لكن الفضول غلبه فسألني:

-فيه شيء لا سمح الله
وأشار إلى التليفون. اخذت الجورنال وألقيته اليه.
-اقرأ المانشيت الصغير ف الشمال.

أخذ يقرأ بهمهمة خافتة وأنا أنتظر بملل وحينما بدا عليه عدم الفهم قلت له ملخصا

-شوية شجر هنزرعهم عل الطريق.

هز رأسه معبرا عن فهمه ثم قال:

-الطريق الفرعي إلى الوحدة

-بل الطريق الرئيسي للمنجلة!

ر

كانت محاضرة مملة عن الكيمياء الحيوية تدور أحداثها في مدرج ضيق عتيق. كان هذا بالطبع حجة مثالية للطلاب كي تغيب وتستمتع بالأكل في كافتريا الكلية التي تجذب الطلاب لدرجة شعورك أن الكلية هي ما ألحقت بها وليس العكس. وكنت أنا ألعن الحظ الذي قادني إلى هنا بعد أن صرت أنسى الجدول والأماكن. في الواقع ظننتها محاضرة شيقة لاستاذ رائع في وظائف الأعضاء.. وهو الاستاذ المسئول عن اسرة الثورة. يقول عنه مؤمن أن لا أحد يجاريه في اشتراكيته. لكني لست اشتراكيا بعد يا مؤمن إلا تفهم؟ لكني أحضر للمتعة ولم يعد تبويض المحاضرات وتصويرها بل ورفعها أحيانا لتلك الحساء التي تطلب ذلك دوما في الجروب على الإنترنت أو عبر الرسائل الخاصة أحيانا يعني. ظللت أنتظر فرصة وجاءت في صورة خلل ما في الميكروفون حقق أمنيته بان توقف الصوت عن الوصول ثم توقف المحاضر تلقائيا وطلب عامل المدرج لإصلاح

الخلل. خرجت أتنفس الصعداء. واثناء خروجي اصطدمت بأحدهم الذي سألني أن كنت خارجا، فاجبت أن نعم فقال:

-انا خارج معاك

لم أكن أعرفه. تعجبت وسبقت دون أن أضعه في الاعتبار لكنه وضع نفسه ثانية ووقف أمامي ماذا يده يسلم. أتاح لي هذا رؤيته بوضوح، شابا أشقر ذا شعر برتقالي ناعم.

-حضورك محاضرة الكيمياء يعني أنك مميز فعلا.

كان زميلنا لا ريب فقد رأيته كثيرا غير أنني لا أذكر له موقفا معينا أو محضرا أو حتى وجودا اليكترونيا. ابتسمت وغمغمت بشئ غير مفهوم. ثم قال معرفا نفسه

-ناجي السيد الفرقة الرابعة.

-أهلا بيك

قلتها دون اهتمام. ثم تنبهت. الفرقة الرابعة ويحضر محاضرتنا؟

- ممكن نتكلم شوية؟

ابتسمت وأشرت بيدي أي تكلم.

-مش هنا

تخرجت وكدت أن أتججج بالمحاضرة لكني حسبت هذا كذبا بينا. فلربما أذهب معه خصيصا كي أتخلص من تلك المحاضرة اللعينة.

-ماشى

تمشينا دون كلام إلى إحدى الحدائق الجانبية شديدة الهدوء البعيدة عن كل الصخب والمباني والناس.

-هنا أحسن

- أهدي.

قلتها محاولا تفسير المكان فقال:

- بل أأمن.
- أنت خايف من أيه؟
- مش خايف بس ده كلام سر.
أحسست بالتوجس ولأول مرة أشعر أنني مع شاب القاه لأول
مرة وحدنا تماما ليكلمني في موضوع لا أعرف عنه شيئاً
- من فضلك خش في الموضوع.
ابتسم وقال: تعرف أيه عن الماسونية؟!

م

حين كنت أستمع للشيخ عمرو كان يقع في قلبي. هل هذا هو
ما كنت أبحث عنه؟ هل هذا طريق الخروج من مفترق الطرق
حيث أتوه. أم أن طلاوة الكلام غير لازمة الفعل أم أن الأمر أشبه
بتأوهات الكبار المتأثرة بقصص التاريخ الغابرة. لكن مع الشيخ
عمرو لا بد أن الأمر مختلف. لأنه مختلف. صارت مشكلتي في
تعارض مواعيد الدروس مع الدرس هي الحل. فصارت هي حجة
النزول ولولاها لما سمح لي أبي بالحضور. كنت استخفي قبل
الدخول. وكأنها أيام الإسلام الأولى حيث يخشى المرء الجهر
بدينه. كلا لم توصلني رعونتي إلى التفكير بهذا الشكل. لكنه فقط
تشبيه شبهني به عبد الله الذي لا يعلم عن الدين غير تلك الأفلام
القميئة واصفة صدر الدعوة. يضحك كثيراً حين أقول صدر
الدعوة لكنه يسكت ولا يكمل السخرية خشية أن تكون شيئاً مقدساً.
لكن ما أزعجني حقاً كان الحاج مصطفى الذي ظل يكيد كيدا. ولم

يكف عن الشكاوى حتى ضيق تماما على الشيخ عمرو. فدرسه اليومي صار بين يوم ويوم. وصوته في الميكرفون منع منه، بل وصل الأمر إلى التحقيق معه باتهامات بث الفتنة. أي فتنة؟ وكيف عرف الحاج مصطفى وهو لا يحضر؟ وكيف لم يعاقب حين علم أنه كان مجرد بلاغا كاذبا؟ سكوت الشيخ عمرو أذهلني وصبر تابعيه أعاظني. ألن يتحرك فيكم أحد نخوة له؟ لكني كنت أعلم أنهم من خارج الحي ولا يعرفون شيئا عما يجري. أنا الذي أعلم، أنا الذي أتصرف. وبالفعل كان الليل وقت خطتي المطلوب. الليل حيث تشوش الرؤية والألوان ويقل التركيز والانتباه. الليل حيث تغلق كل المحلات ويبقى محل الحاج مصطفى مفتوحا ينير قوام مانيكانانته بانوار الليد. الليل حيث أمشي متدثرا بكوفية لا يعرفني منها أحد وأمسك بزلاطة صلدة كبيرة وأقف على الجهة المواجهة من الرصيف. هل أفعلها؟ يتصاعد الادريالين في دمي وأنا أدرك الحقيقة أن ضرب طوبة كضرب سكين كضرب رصاصة. المهم تخطي الحاجز النفسي. تتلاحق أنفاسي. ثم أكتمها استعدادا و.. هوب. تنطلق مسرعة إثر جريي على صوت زجاج الفاترينة المتكسر. أجري مسرعا متلفتا. ثم أدرك أن هذا أدعى بالارتياح. فأمشي في محاولة استكانة قبل أن أصل إلى المنزل وأدخل دون كلام من مشاوري الوهمي الذي اختلقته. أتمدد على سريري وحين تهدأ أنفاسي ابتسم من فرط سذاجتي وكأنني قتلت محتلا من القرن الماضي. نمت وقد أحسست بتفاهة الأمر ولم استعظم ما فعلت إلا في الغد. في موعد الدرس التقليدي حيث قابلني عبد الله لكن بتجهم غريب وسؤال في العين سرعان ما ترجمه لسانه.

-أنت عملت ايه امبارح؟
-أنا؟

عاد الادرييناليين اليّ. وقد أحسست بالحصار والإتهام. هل عرف. كيف عرف؟ بدا لي مصرا لكني قررت إلا أقع بسهولة وكنت أكثر إصرارا على معرفة سبب السؤال وحين مررنا أمام الفاترينة المحطمة. ولم يشر اليها اطمأن قلبي ولم أعطه جوابا لكن قلبي عاود الخفقان حين علمت سبب السؤال.
-ندى بتقولك إنها عارفة أنت عملت أيه. مش هتقولي بقى يا شقي؟!!

أ

بدأت المشادات في اليوم الثاني على الفور. لكني أذكر نظرهم في اليوم الأول جيدا. ما بين الغيظ والتوعد كانت تلتمع عيونهم. تم الأمر بعد طابور السابعة. جمعت جنود الوحدة في صفين واستبقيت فقط جنود الخدمات والبوابة وابقيت خلفا مني أمجد وأخذت جمال معي. الشجر حمل على دفعتين على عربة الترحيلات. مجرد ثلاثين شجرة من الجهنمية كان نصيب وحدتنا الصغيرة. مشينا إلى هناك. إلى حيث ينصب البلطجية كمينهم بالضبط أمام الوحدة -حيث يعطيهم المدخل اتساعا ومكان اختباء وإقامة وما إلى ذلك. ثم توقفنا ولم نزرع شيئا! بل صنعنا خيما بدائية من بقايا أعمدة حديدية وقطع قماشية في مخزن الوحدة المهجور وبقينا حتى المساء. ربما كان عملنا الوحيد حرق جذوع النخل وتكسير الحواجز الاسمنتية التي كان يخبئها هؤلاء. وحين جاءوا في عربية دفع رباعي مكشوفة ولم يجدوها ووجدونا أسقط

في أيديهم. ميزت حيرة في العيون وهم يقفون على بعد عشرين مترا لا يفهمون بينما الجنود تعسكر وحواجزهم تحترق وتكسر. وحين لمحني كبيرهم وهو رجل في الأربعين قوي البنية ذو شنب عريض يدعى السنوسي. نزل من سيارته راسما ابتسامة عريضة أسفل شنبه العريض. وقال:

-يا هلا

قلت بلا اكتراث وأنا اتابع تكسير الحواجز من قبل الجنود

-هلا بيبك.

-شرفتونا

نظرت حولي ثم نظرت له ضاحكا

-انتو اصحاب الطريق؟

-بل حماته

-من مين

-يا باشا الطريق ده طريق عربيات المزارع من المنجلة. وياما اتخطفت عربيات بحمولتها. أنا كنت سواق وعارف.

لم أبد اهتماما فأكمل:

-ولما حاول حرامية أخذ عربيتي قاومتهم وهزمتهم.

-أممم

-ومن ساعتها والسواقين اختاروني أنا ورجالتي للمهمة دي.

كنت أعرف قصة مماثلة. حكى لي جمال طرفا من هذا باعتباره قديما وباعتبار أن اقاربه في المنجلة. أعرف أن ما كان بغرض الشهامة انقلب جشعا وافتراء. وبعد أن كان السائقون يدفعون تحايا هؤلاء الرجال باختيارهم كمكافأة، صارت إتاة مفروضة معلومة. وهي قصة تتكرر كثيرا على كل المستويات -طيب.. دورك انتهى وأنا اتعهد بسلامتكم كلكم أنتم والسواقين -لا مؤاخدة. حضرتك ضابط جيش ولا شرطة؟

اعتدلت في وقتي وظهرت غضبي:
-وانت مالك. ولو كنت ما تعرفش. فالجيش له الضبطية
القضائية من شهور. يعني ممكن أقبض عليك لو عايز.
ابتسم وهم بالإصراف.
-لا مش عايز ولا أنت عايز.
وكانت نظرتة الأخيرة التي ذكرتها، غيظ وتوعد. في اليوم
الثاني تكرر المشهد. لكن ليس معي، بل مع أحد الجنود. بينه وبين
أحد رجال السنوسي. حينها ارتفع صوت الجندي:
-حرس سلاح.
وهي اشارة بمعنى الخطر. رفعنا جميعنا أسلحتنا. واتجهنا
نحوه لنجد سيارة الدفع الرباعي تبتعد. هنأت الجندي على
استيقاظه وبقيت أتابع السيارة في الأفق.
اقترب مني جمال وقال:
-وبعدين يافندم؟
-وبعدين؟
-الناس دي مش سهلة
-شايفني عملت مشكلة ولا قبضت عليهم؟
-دي مش مهمتنا
-مهمتنا النوم في الوحدة؟
-طب أيه خطة سعادتك؟
-النهارده هننصب كمين صوري. وبكره نبتدي زراعة وبعدها
نسيب نقطة خدمة دائمة لحراسة الشجر القديم وفي انتظار الشجر
الجديد.

والماسونية شيء فريد حقا بين الجماعات والتنظيمات. فعلى عكسهم جميعا، أولا هي لا تسعى إلى الشهرة، بل إلى السرية قدر الإمكان. لا تسعى إلى زيادة عدد الأعضاء بل إلى انتقائهم انتقاءً. لا تسعى إلى أهداف قريبة وحاضرة بل إلى أهداف بعيدة المدى بطيئة الاثر. يقال - إنها السيطرة على العالم ولو بالادارة غير المباشرة لخدمة الإله الذي لا نعرف من يقصدون-. والدليل على نجاحها نجاح سعيها فهي ورغم أن الجميع يعرفها لكن لا أحد بالضبط وبالتحديد الدقيق يعرف تكوينها واهدافها. حتى اعضاءها الذين كُشفوا كانوا بالفعل منتقين بعناية. أما كل التغييرات التي حدثت في هذا العالم في قرنين أو ثلاثة فقد عزت إليها دون تحديد قدر مشاركتها التي كانت غالبا بواسطة اعضاءها الذين وصلوا إلى مراكز حساسة دون أن يعرف أحد ماهيتهم. اذن فنجاحها غير مسبوق.

-وده ما نسعى اليه

قالها لي ناجي ببراءة يحسد عليها. وهو يرتشف عصيرا معلبا عزمني عليه. وكأن الناس العاديين يتكلمون في تلك الأمور ليل نهار. وكان هذا رده حينما اخبرته عن مشاهدتي أفلاما متحدثة عن الماسونية لكن لم أفهم منها شيئا معينا.

-هي دي الصورة اللي عايزينها توصل. آه موجودين، بس مش موجودين.

أصابني الغيظ

-من أنتم؟ ومالي أنا؟

-اسمنا مش هتعرفه دلوقت. لكن مبدئيا اعتبرنا تنظيم اسلاميا.

مازال يتكلم بلهجة الشخص العادي الذي يحدث جارة في محطة الأتوبيس. ثم أني لم أر قط إسلاميا يلصق لنفسه بنفسه تهمة الماسونية.

قال مستدركا وكأنه سمعني:

-إحنا مش ماسون قطعاً لكني بقرب فكرة تنظيمنا ليك.
كان الأمر صدمة لي. أنا الذي كدت أن أكون اشتراكيا يعرض عليّ تنظيم إسلامي ما الانضمام اليه. لكن تلك ليست الصدمة.
الصدمة أني كنت اسلاميا بالفعل لكني نسيت!
إحساسي بالارتباك جعلني أفكر في الإنصراف من المشهد برمته.

-طيب.. أنا هقوم بقي.

ضحك وأمسك معصمي باريحية لاجلس

-طب أنت عارف عمار عبد المنعم.

أعادني إلى حظيرة افكاري بتذكري عمار. هل يعقل أنهم معا؟
شتان الفارق. لكنه منذ قليل أتى بسيرة الإسلاميين. هل..؟

-عمار هو الوش الثاني لينا

بدأ الأمر يروق لي فأنصت. عمار وأسرته بل وجماعته كلها ما هي إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد العائم. هم الذين يظهرون ويواجهون. هم الذين يسلكون الطريق العمومي. أسرع لكنه أخطر. لذا تُرك الذين يجتازونه دون انتقاء. مجرد اختيار منهم. بل ربما لا يعرفون شيئاً عن الطريق الآمن الطويل الآخر.

-يعني عمار ما يعرفش عنك حاجة

-بالضبط.

قد يكونون أخوة في الفكر لكنهم غير أشقاء. هم إسلاميون يريدون اقتحام السياسة بمرجعية إسلامية، لأهداف إسلامية.. الطريق المباشر اتبعوه عبر عشرات السنين ولما لم يأت بجدوى قررُوا اتباع الطريق الوعر البطيء في الخفاء.

-عملنا فرع موازي مالوش أي نشاط بالعكس مطلوب منه البعد التام عن السياسة والتركيز في الحياة والشغل والعلم. مطلوب منه انه يوصل قد ما يوصل في المكانة ويستتي أي تعليمات.

-تعليمات؟

-آه ده عموما أسلوب متبع فعلا في المخابرات. زرع خلايا نائمة. ممكن تعيش وتموت وما تنفذش عملية واحدة. الفكرة عندنا أن فيه تنظيم كامل قائم على الفكرة دي والفكرة كمان في الهدف. -إيه الهدف؟

-الحكم!

- آآآآه

وهزرت رأسي تأثرا بحركة مسرحية لكنه فهم المغزى فقال وقد رفع صوته لأول مرة:

- آه الحكم.. آمال انت فاكِر آيه. فاكِر أن ممكن أي فكرة تنطبق من غيره. فاكِر أن حد هيسيبك تنفذ شيء وأنت ماعندكش سلطة. الأفكار والإقناع والتربية والدعوة كل ده ما بيأثرش إلا في اللي مالوش هوى. لكن أي حد عنده فلوس أو سلطة يعني عندي هوى مستحيل يقبل فكرة فيها مخاطرة على ما يملك. بص، زمان ليه ماحدش آمن من سادة قریش للنبي نفسه. مش قریش بس. انت عارف ليه أصلا فيه جهاد في سبيل الله. لأن الدعوة محتاجة قوة

تحميها. وارجوك ما تقلش ما احنا مسلمين. صدقني
مانعي الزكاة اللي ابو بكر حاربهم كانوا مسلمين عننا.
لم أرد. فالرد على خطبة يحتاج خطبة مثيلة. ثم أن بعض
الكلام مس قلبي إما لموروثات قديمة وإما لتجني مبالغ فيه أقنعني
به مؤمن وأحسست الآن أنه بلا قيمة. لكن بقي السؤال يحيرني
-طب انتو مش وصلتوا للحكم بالفعل حالياً؟
ضحك ونظر بجانبه لفتى وفتاة يقتربان وحين رأونا ربما
في مكانهم المفضل- عادوا ادراجهم.. ثم قال:
-هما وصلوا للحكم. عمار واللي فوقه.
-انتو مش معاهم؟
-بالعكس. احنا متوقعين اللي هيحصل وعارفين أن ده حكم
مؤقت. ده أن كان حكم اصلاً.
وأردف:
-احنا جناحين منفصلين تماماً دلوقت. وتسعة وتسعين في المية
منهم ما يعرفش حاجة عننا. هما ليهم تجربتهم. واحنا يمكن لسه
قدامنا شوية لحد ما نحاول نحكم السيطرة.
كنت استوعب ببطء. هو يتكلم بحكمة رجل أو شيخ بينما هو
شاب جامعي. يتكلم بسرية مخبراتية بينما هو طالب طب. ثم
ربما أجاب هو على سؤال من هم صدق أو كذب. لكن يبقى
السؤال: ومالي أنا؟

وكأنني أوكد المبدأ البوليسي القائل بأن الجاني يعود إلى مكان جريمته، وجدتني واقفا أمام الفاترينة المحطمة على ذات الرصيف ظهري لها ووجهي إلى الشارع أتابع بطرف عيني حركة الصعود والهبوط في العمارة. لكن الأمر كان أبسط ويعتمد على مجرد مصادفة -أو لعلها ليست كذلك- أن ندى هي ابنة الحاج مصطفى صاحب المحل وصاحب العمارة وبالتالي تعيش هنا وهي من رأتني. ولم يكن الدافع كلمات محمود الأخيرة. فقد سببت لي أرقا وفكرا لم ينتج عنه عمل، سوى غياب من درس اللغة العربية لحصتين ثم ترقب لندى التي لم تبد أي اختلاف. وهكذا كدت أنسى الأمر، لولا ذلك اليوم. خرجت يومها من المسجد بعد درس العصر. نظرت في الساعة فاذا بعشرة دقائق تتبقى لمجئ عبد الله. وقبل أن أفكر في الإنتظار أو في شراء عصير من العصارة القريبة وجدت يدا تمسك بمعصمي. نظرت لأجد أبي وعيني ترمقني بحدة قبل أن يتكلم:

- هو ده بقى درس التاريخ؟

ما الذي أتى بأبي هنا؟ ما أعرفه أن أبي يرجع من المصنع بعد الظهر ليتغدى ويصحو بعد المغرب. هل هي مصادفة أم بفعل فاعل؟ لم أرد. وهو لم يتكلم ومشينا كالمغنطين نحو المنزل. مررنا على محل الحاج مصطفى لكنه كان واقفا بالفعل امام المحل. بطرف عيني لمحت طرف عينه وهو يغمز وبعدها أعطاه أبي التحية. هل هذا يعني ما أظن. عندما عدنا إلى المنزل لم ينفجر في أبي كما توقعت. فقط ظللنا جالسين. هل ينتظر مني

الاعتذار مثلا أو التوضيح. أمي التي لم تفهم شيئا انشغلت في عمل الغذاء. فكرت أن استأذنه للرحيل. لكنه بالطبع لن يحتمل.

-كنت فاكرك أرجل من كده
-ماكنتش بالعب
-ماكنتش بتشوف وراك ايه
-فيه حاجات أهم
-أيه أهم من مستقبلك
-مستقبلي هو ديني. أنا اخترت خلاص
-اختارت يابن 17. بكره مش هتلاقي حاجة تختارها.
-بكره لنا
-انت فاكرك أن الحرية دي هتفضل كثير. شوية ويتلموا
دراويشك تاني ولو عايز تبقى معاهم يبقى خليك معاهم.
قام غاضبا فقامت منفعلا مرددا كلمتي الأخيرة التي لم يسمعها
-لكن الشيخ عمرو ليس منهم.
وحين دخلت غرفتي لم أفكر إلا في شيء واحد وشخص واحد.
انتظرت في الغد قبل درس اللغة العربية أمام بيته!

أ

بعد مرور شهر كانوا قد صاروا تاريخا. لم تعدم محاولاتهم البائسة من نصب كمائن غير متقنة بدائية على الطريق الرفيع الطويل. لكن ما توقعت كان قد حدث. لقد تمرد عليهم السائقون. ثمة تفاصيل رواها لي جمال عن مشادات وغدر وعراك. لكن

الأمر انتهى إلى الشعب كما في الحكاوي المثالية. وكان الكمين الذي نصبته أو نقطة الخدمة على سور الوحدة الخارجي ومحيطها الشجري كما اسميتها رسميا ينعقد صباحا فقط حيث موعد مرور سيارات المحاصيل المليئة وعودة الفارغة. ومع الأيام صار ينعقد يوما وكل يومين. ثم لم يعد ينعقد وكانت تلك نهاية خطتي السعيدة. فعكس ما كان يخشى جمال أو يتوقع أو يرجو لا أعلم بالضبط لم يصب عسكري بأذى ولم تنتشب الفتنة في المنطقة ولا ولا. والجنود الذين تملكهم الخوف مني بعد الرجاء، صار إعجابا وهيبة. لكن المقدم كان هو من لم يتغير موقفه. أذكره بسيارته القادمة من آخر النقطة الرمادية للطريق في وسط اللون الأصفر للصحراء ذي الصورة المذبذبة بفعل السراب. كنا حينها في اليوم الثالث لزرع الأشجار. توقف وترجل ناظرا حوله واقترب مني وقد وضع يديه حول وسطه وقال:

-صباح الخير حضرة النقيب افنكرتك في الوحدة

-مفيش فرق كبير. أنا حواليتها الآن.

-ليه

-ماقرينتش جرايد.. حملة سيادة الوزير لزراعة مليون شجرة

نظر لأعلى ثم أصدر إيماءة تفيد بتذكره للأمر وقال بتهكم.

-وهنا بقى المكان المناسب.

ضحكت وسكتت للحظات ثم عاودت الضحك قائلاً:

-اسألهم. انت اللي اخبرتني بمثل الحديقة.

تجهم للحظة ثم ابتسم متظاهرا بالمرح

-بالتوفيق

وعاد إلى سيارته ليدخل بها الوحدة بينما نادى على جمال الذي كان في الجهة الأخرى ليلحق به. توقعت ما يدور بينهم. لم

اكثرث وقضيت باقي يومي مع الجنود في الخارج. وحين عدت
إلى سكني كان في انتظاري.
-باين عليك التعب.
-من الشمس والتراب.
تنهد وقد قرر الدخول في الموضوع.
-هل تظنك أنك كده انتصرت
-انتصرت على مين
-انتصرت عل حماة الطريق. أو انتصرت عليا؟
-العفو يافندم. أنا اعتبرت أنك وكلتني بمهمة ونفذتها.
-لو كده فانا بانصحك ما تكملش المهمة دي.
وقبل أن أتكلم دخل إلى غرفته قائلاً
-تصبح على خير
كعادته بات ليلته ومشى. وظهر ا جاءني اتصال القيادة يستفسر
عن الموقف.
-نفذت تعليماتكم يافندم بالحرف
- نقطة الخدمة نهائية لري الاشجار الجديدة وحمايتها من
السيارات الذاهبة والعائدة.
- حاضر يافندم. خلال شهر سيعود كل شيء كما كان حتى
ترسلوا لنا الدفعة الثانية من الاشجار.
وفعلا بعد الشهر عاد الرائد ووجد كل شيء على مايرام لكنه
لم يتراجع عن موقفه كما توقع. بل قال
-ارجو إلا تصيبك مغبة ما فعلت!

وسط الكتب التي علاها التراب فوق مكتبي جلست. لا أذكر المرة الأخيرة التي فتحت أحداها فيها. لا أذكر المرة الأخيرة التي طلبت من أمي شايًا أو قهوة تعينني على السهر. في الواقع لقد صارت مذكرتي الإنترنت ومنبهاتي النقاشات. لكنني في ذلك اليوم بالذات وحين عدت من اللقاء العجيب مع ناجي الذي استمر إلى قرب المغرب. وحين عرضت عليّ أمي الغذاء فاخبرتها أنني فعلت بالخارج مع أنني لم أكل شيئًا. حتى العصير الذي عزمي عليه ناجي لم أشربه من فرط العصف الذهني الذي أوقعه أرضًا. ومع ذلك أصر أبي حين جاء أن أجلس معه على طاولة الغذاء متساءلاً:

-عامل أيه واخبار المذاكرة؟

فقلت بلا اهتمام:

-الحمد لله

-الحمد لله على كل شيء. بس مش شايف يعني شغل زي

الترم الأول، مالك؟

-مفيش بذاكر على اللاب توب.

يضحك ثم يقول

-ماشني هصدقك بس افكر أن رأس مالك هنا شطارتك غير

كده هتنجرف وعمرك ما هتبقى موجه، مجرد نقطة في بحر.

أبتسم وأقوم متوتراً إلى غرفتي.

في ذلك اليوم بالذات جلست ككل الأيام إلى اللاب الذي لا

يعرف أبي كم تسبب باهدائه إلى فشل من حيث ظنه مكافأة

للنجاح. لكنني لم أجلس لأناقش أو أتابع الجديد بل جلست لأقرأ

النقاشات الفائتة وأتصفح القديم. لاحظت الكثير، لكن يمكن تلخيصه في التناقض والسطحية والهوى. آرائى المتناقضة المبنية على نظرة سطحية وهوى متبع اثبتت لي خطاى وأن الأمور لا تأتى هكذا وأن الراى لا يطلق هكذا، وأنه يحتاج إلى مراجعة الداخل قبل الخارج. مراجعة القناعات الشخصية قبل آراء الآخرين. قراءة الحدث قبل قراءة تحليل الحدث. وهكذا أغلقت اللاب توب ثانية وتمددت على السرير بالحذاء أنظر إلى الشباك الذي فتحت منه ضلفة واحدة وبقيت ضلفة الشيش الأخرى مواربة. أسندت رأسى على شباك السرير متسائلا عن مرجعيتى وعن الاحداث المجردة. حينها اكتشفت أن مرجعيتى بالتأكد ليست اشتراكية أو ثورية، وأن الأحداث لا شك أعمق من قراءتها بسخط وسخرية. حينها أغلقت صفحة مؤمن. وبقيت صفحة ناجي مفتوحة ببيضاء لا كتابة فيها. وربما تظل كذلك فما يطلبه ناجي هو عدم الكتابة. ما يطلبه هو ما أطلبه هو ما طلبه أبى. أن أعود كما كنت. أن أستغل ما منحني الله من ذكاء وفهم. أن أكمل دراسيتى بالمعية. أن أتفوق أو أحافظ على التفوق. إلا أنتبه لكل تلك العوارض التي لن أحترفها أبدا وسأخسر بسببها ما أحترفه. أما السياسة فمحض أو هام وأما التغيير فساشارك فيه أجلا أو عاجلا حين يسندون الى مهمتى التي تعلى من شأن الدين والبلد -سيب السياسة والنشاط والحركة. سيبها للناس اللي دي شغلتهم. خليك في طريقك. ولما يبجي وقتك احنا اللي هنبلغك. وساعتها أنت حر برضه.

حسنا يا ناجي ربما افعل. فقط لي سؤال واحد قبل ذلك!

م

كنت أعلم أن هذه هي الفرصة الوحيدة لرؤيتها وحيدة، قبل مقابلة صويحباتها. وكنت أعلم كذلك ما في الأمر من خطورة. بل هو قمة التهور. لا أحد يقابل فتاة أمام بيتها. خاصة لو كانت ندى بنت مصطفى وخاصة لو كان لقاءً توبيخياً. لكنها كما قلت الفرصة الوحيدة المتأخرة. فلو كان غيري لاستغل كل تلکم الفرص كرد فعل على ما تفعل ندى. ولعلها بلا شك كانت تنتظر. لكنها اختارت الشخص الخطأ. لكن لم اختارته بالذات واختارته لماذا؟ وايا كان الجواب لما بلغت اباه الذي كاد لي وحرمني من الدرس. لم يتبق سوى هذا السؤال في ذهني حين سمعت صوت نزول ثم رأيته تهبط في مرح. لتتوقف وقد وجدتني أمامها. ووجدتها أمامي حيث لأول مرة أنظر إليها دون أن أخفض وجهي —كنت الوحيد من يفعل ذلك— ولا أحبس أنفاسي حين يطالعني وجهها المنير —والجميع كان يفعل ذلك— وبدون سابقة سلام أو استئذان قلت آخر ما وقر بذهني:

-ليه؟

وحين قلتها وتوقعت مفاجأتها أو توبيخها لكنها قالت ببساطة -تعالى ورايا.

ولم افهم ما تقصد إلا حين رأيته تخرج وتمشي في عكس اتجاه الدرس وتتنظر للخلف. حينئذ تبعته وأنا لا زلت في سكرتي ولم أفق منها إلا وأنا في زقاق أبو الوفا المؤدي إلى شارع الترعة. وشارع الترعة شارع طويل ورفيع ليس له تفرعات ولا يطل عليه إلا ظهور البيوت التي تحجبها عنا أشجار الكافور الطويلة. يقال إنه كان ترعة في الماضي. وقد غطت ورصفت لتصل حيناً

بالحي المجاور. لكنه رغم هذ ظل شارعا غير مستخدم وكأنه لازال ترعة. فيه ألقيت المخلفات وما عاد يتسع للسيارات. وهو طويل جدا كي يستخدمه المشاة دون وسيلة انتقال كذلك. تلججت خطواتي في الزقاق. ولما ولجت الشارع توقفت كأنها في انتظاري. فتقدمت وجلا. وقد أحسست أخيرا بغرابة ما يحدث.
-ازيك يا محمود

قالتها فانتباني شعور متناقض من السعادة والضيق. لكن السعادة انتصرت وانهارت كل الحواجز التي صنعتها. انهارت كل دفاعات الفتنة وكل متاريس الشهوات. قلبي الذي حاول الإمتلاء بالإيمان قد خر منه نقطة فسرسوب فسيل وحل بدلا منه حبها. عشق صوته والذوبان في عينيها الباسمة في كفيها المنعقدتين في مشيتها المتباطئة. بقيت أمشي جوارها جنبا لجنب وكأنني في حلم أو في كارتون أو الجنة ذاتها. حتى أنني نسيت أن أرد..

-كنت عايزني في أيه؟

قالتها فاخرجتني من سكرتي. ارتبكت وكأنني استبدلت جنون الشباب بحكمة العجائز التي لم تجد أي مبرر واضح لما صنعت. قررت الهجوم لا الدفاع فقلت دون أن أنظر:
-انتي اللي بعثيلي رسالة مع عبد الله.

ابتسمت وصمتت كأنها تتذكر. مالت إلى شجرة وقفت تحت ظلها. ثم هزت شعرها بالطريقة المحببة. وقالت:
-كنت مستغربة. عارف ليه

ملت اليها تحت ظل الشجرة وقلت وأنا أرفع نظري حيناً واصله حيناً:

-اكيد عشان اللي عملته. انا بس كنت غضبان ولو عرفتني ابوكي كان.

قاطعتني بإشارة يدها فصمتت ليس لإشارتها بل إنشغالاً في
ملاحم باطن كفها الذي بدا لي ناعماً كالحرير أبيض كالريش
وكأنها وسادة أتمناها أو ببعض الخيال فراشا وثيراً أنام داخله فقط
لو صرت عقلة أصبع. وأخرجني من حلمي حلم آخر أكثر
خصوصية حين قالت:

-كنت بأفكر فيك ولما بصيت م الشباك لقيتك. فاستغربت!

أ

هل كان الرائد متأمراً؟ بالطبع لا، لكنه كان يتوقع الأسوأ
وربما يتمناه. ففي اليوم التالي مباشرة وأنا أخرج بسيارتي غير
منتبه، إذا بطلقات متفرقة من الخلف. أصابت الكاوتش فأنحرفت
السيارة عن الطريق نحو أحد الأشجار لولا أنني شددت الفرامل
لأنقلبت السيارة فقط دارت حول نفسها مرات. كانوا هم بسيارتهم
ذات الدفع الرباعي وإن ميزت قدما أصاب السيارة ونحوها
أصاب أجسادهم. لم أكن أحمل سلاحاً. بينما هم يحملون. نزولي
من السيارة خطر داهم. لكن بقائي كذلك هدف سهل. أخرجت
الهاتف لأحدث جمال ليرسل لي قوة أو يتصل بالشرطة العسكرية
لكني كنت أعلم أن كل ذلك ضياعٌ للوقت. وأيضاً هم لم يمهلونني
فقد ترحلوا وجروا نحوي. هكذا لم أجد بداً من الخروج من
السيارة. وقفت مواجهاً لهم وقد شعرت بشجاعة غلبت خوفي.

-عايزين أيه

-انت

-ماتتهوروش
-ماتكترش الكلام
-هنتفاهم صدقوني خلونا نتكلم.
-مفيش كلام. رصاص

صوت سيارة قادمة من خلفي نظرت فاذا بها أحد سيارات
الفاكهة تظهر من بعيد. بل سيارتان. لمحت التردد على وجوههم.
أجعلون شاهدا على فعلتهم أم يختبئون الآن أم فليقتلوا الجميع؟
الشاحنتان تقتربان أكثر فأكثر. وحين لمحت في عيونهم القرار.
قفزت مختبئا بالسيارة مع أول إطلاقة للرصاص. توقفت
الشاحنتان على مسافة عشرين مترا حين ارتفع صوت الرصاص
وبدا القرار أن يقتلوني ويهربوا. وحين انطلقوا ناحية السيارة
انطلقت أنا ناحية الشاحنات. رصاصهم الغير دقيق لم يصب غير
ساقى لكني أكملت حتى وصلت إلى أقرب شاحنة حيث ميزني
السائق. فمد يده لي ينتشلني وهو يقول -يا اولاد الزواني. وكان
رصاصهم قد أصاب الزجاج الأمامي لكنه أخفض رأسه بجانب
رأسى المنبطح طبيعيا على الكرسي بسبب الإصابة. ثم داس
البنزين غير رائي. سرعته تزداد ومعها أصوات الرصاص. لابد
أنه الآن يدوس عليهم أو على سيارتهم. وبالفعل حدث اصطدام
متوقع بسيارتهم فتقوقفنا. ثم توقف صوت الرصاص. للحظات
بقينا منخفضين صامتين.

ثم رفع السائق رأسه ينظر وقال:
-تستاهلوا يا اولاد الرفضي

-ازاي تغامر وتقولي لي سر زي ده مش خايف اكشفك.
 قلتها له في الموعد الذي ضربه لي بعد ثلاثة أيام كمهلة
 للتفكير. كنا في نفس حديقتنا المنعزلة ولكن نتمشى هذه المرة
 دون جلوس. توقعت أن يبتسم. لكنه ضحك ضحكا بل قهقه حتى
 جعلني أضحك أنا أيضا دون إدراك السبب ثم سألني فجأة وكأنه
 لم يضحك توا.

-وأنت ازاي صدقتني؟
 وكأني بهتت. كيف لم أدرك هذا الاحتمال. ماذا لو كان
 يخدعني. بل هو يخدعني. هل كل ما قاله يعقل؟ لكنه قطع طريق
 وساوسي.
 -هو ده الضمان. انت ما تعرفش حاجة. كل ده دردشة ليس
 إلا.

أحسست بالغيط كسابق لقائنا الأول.
 -يعني ماصدقكش.
 -اللي انت عايزه. أنا زي واحد اديتك نصيحة. وانت حر!
 توقفت عن المشي. نظرت له بامعان.
 -يعني انت خلاص مش هاشوفك ولا اقابلك تاني.
 -إلا لما نعوزك
 ضحكت.
 -ايه الثقة دي وكأني خلاص انضميت.
 -كل ما تفكر اكثر كل ما تتضم اكثر. ده الفرق معنا. الوقت
 في صالحنا.
 ازداد غيظي وحين لاحظ ذلك قال:

-ممکن اسمعك حاجة

لم ينتظر ردي، بل اخرج موبايله واخذ يعبث بأزراره قليلا باحثا فيما يبدو عن شيء ما. وحين وجده إذا به تسجيل صوتي وبدا انه يريد دقيقة معينة فيه وحين وصل اليها أعطانيه لأضعه على أذني.

(وكلما مر الوقت بالإنسان تعصب لفكرته وتمسك برأيه وصار اقناعه بشيء أو اثناؤه عن شيء أصعب. إلا إنسان واحد. هو الإنسان الباحث. أو من في طريقه إلى البحث. فهو حينئذ يتبع فطرته ويقوده حسه ولا يعوج عقله أو يزيغ قلبه. فاذا نظرنا للفطرة وجدناها الإسلام. ولا أقصد بالإسلام العبادات والتعاليم. بل الإسلام بمعناها الحرفي. الإسلام لله. وإسلام الأمر له حينئذ يهديه الله لطريقه وطريق نبيه ليقيم دينه ويعمر أرضه. حينئذ يشعر بلذة الحياة وقيمتها والأهم قيمة نفسه)

أخذ الموبايل ووقف التسجيل وقال:

-وأنت شاب وباحث وقيم.

لم التفت لمقالته بل سألته السؤال الذي احاط بي:

-هو ده هو.

-ايوه الشيخ عمرو الأمير حبيبك وأنت حبيبك!

ولما وجد المفاجأة على وجهي أردف ليزيد الأمر شططا.

-هو اللي وصانا عليك أنت بالذات.

لا ينبغي أن أنوه أنني بقيت ملازماً لمنزلي، بل لغرفتي ثلاث ليال سوياً. ظنّها أبي خلافاً معه وظننتها أُمّي وعكةً صحيّة. لكنني نفسي لم أعلم ما يحدث. هل يمكن أن تصيب الحمى العقل لا البدن؟ هل يمكن أن يعمل عقلي 72 ساعة دون توقف بلا مبالغة؟ وقد صار صحوي مناماً ومنامي صحواً. يعمل في حلقات مفرغة. وكأنه حاسوب وقع في معضلة حسابية لا يستطيع حلّها أو فيلسوف لم يصل بالتأمل إلى شيء سوى نفس السؤال الذي تأمل من أجله. لكن حتى السؤال لا أعرفه. فالأسئلة إما أتفه من إجاباتها وإما أسئلة ليس لها إجابة. لكن يمكن تقسيمها إلى مراحل. الأولى ما يتعلق بندي. وبعد أسئلة سألها الجميع عن جمال ندي، وكمال ندي. ببساطة كيف كانت ندي. السؤال كان لماذا ندي؟ كيف هي الوحيدة التي أحست بي. لمحت الذكاء في عقلي والجمال في عيني والنقاء في روحي. الإجابة التافهة أنها مجنونة وأنها تنوهم أو أنها ملاك بالفعل وتعرف ما لا يعرفه البشر. المرحلة الثانية لماذا أنا؟ هل أنا بالفعل أسطورة؟ لا أعرف قيمة نفسي. هل وصلت إلى نقاء يجعلني أحصد بجمال روحي ما لا يربحه غيري أم أن جمال شكلي عادت له جاذبيته من جديد؟ وهذه أسئلة ليس لها إجابة. المرحلة الثالثة كانت من أنا. هل أنا الشيخ أم الدنجان. كلا لن أصير كلاهما فاصير شيخاً فاجراً. وقفت أمام المرأة أتساءل هذا السؤال. كنت قد قررت أن البس أكثر ثيابي شبّابية. بنطلونا جينسا طويلاً بدل ذلك القماشى القصير وقميصاً بنصف كم بدلاً من الآخر طويل الأكمام. أرجعت شعري إلى الوراء بدلاً من فرقه من المنتصف. بقى شيء واحد.

-دقنك جميلة بحبها اوي بس.
اشذبها. ارسماها. المعها. هكذا فعلت متذكرا كلامها ولم أخرج
في اليوم الثالث إلا إلى حيث عدت من يومين. أسفل بيتها ثم زقاق
أبو الوفا المؤدي إلى شارعنا الذي -لاحظت- أنه في عكس اتجاه
مسجد الشريف بالتمام.

أ

في تكريم أذاعه التلفاز تقدمت متكئا على عكازي وبكامل
أنفاقتي العسكرية لأسلم على الرئيس والوزير وأتسلم درع الوطن.
كلامٌ كثير قيل عن الوطنية والفداية. كلامٌ كثير قيل حول الجيش
حامي الحمى المتحمل لعواقب أوضاع البلاد. وكلامٌ كثير قيل
عن العلاقة بين الجيش والشعب. حيث كُرمَ معي السائق الذي
انتشلني والذي قضى على اثنين من الأوغاد بعجلاته وفر الباقون.
لم أكن أتصور قط أن يصل الأمر إلى هذا الحد. بل ظننت مبدئيا
أنه سيكون توبيخا وربما جزاء عما غامرت به. ولم أغير فكرتي
إلا وأنا في المستشفى العسكري يزورني قائدي المباشر مخاطبني
بالبطل. لا بد اذن أن ثمة مكافأة ستحدث. إلا أن زيارة قائد الفرع
وقائد المنطقة حتى وصل الأمر إلى رئيس أركان الجيش الشرقي
الذي أخبرني أن الأمر أكبر مما أظن. وحين تم اسعافي بشكل
يسمح لي بالعودة لمنزلي، طلب مني البقاء. وجاءت الكاميرات
تصورني وأحاديث الصحف تغمرني. وحين فتحت التلفاز اتقاءً
للملل وجدت صورتني في نشرة الأخبار. وترقب للقاء منتظر

معي سرعان ما جاء في صورة مذيعة حسناء دخلت عليّ الغرفة
ببوكيه من الورود عملاق وهي تقول:
- بطلنا الهمام ازي صحتك دلوقت.
- آآآ. تمام

كانت هي تلك المذيعة الشهيرة. كانت أقل حسنا في الواقع مما
تبدو عليه في التلفاز.

-مارضيناش نزعجك لحد ما تخلص فترة النكاهة.

قالتها بالكاف بينما ابتسمت أنا مغتاظا.

-قلنا ازاى حاربت هؤلاء المجرمين

- آآآآ أنا ما حاربتش أنا بس اتسببت في وقف شرهم.

-ازاي قدرت توقفهم عند حدهم وتقي شر السكان منهم

- آآآ هما سواقين مش سكان

-قلنا ازاى قيادة الجيش ساعدتك في الموضوع ده.

- آآآآ. شوية شجر.

-يا سلام. أد إيه جيشنا جميل.

وبعد مزيد من الاسئلة التافهة عرفت ما يحاك. منذ فترة إدارة
الشئون الإعلامية للجيش لم تجد شيئا تعمل حوله قصة وها قد
جاء فارسها المنتظر. لقد صرت بطل البلاد أو ما هو مفروض
أن أصير.. العسكري الذي ضحى من أجلكم يا مواطنين. بالطبع
لن أترشح في انتخابات مجلس الشعب. لكنه بدا صورة مشرفة
للبدلة العسكرية. وهكذا صرت أنا اسطورة العسكري الأعرج
وصار الكل يعرفني، مدني وعسكري. وهكذا كان انتقالي إلى
إدارة المخابرات، حيث يحتاجون عقلي وليس بدني أو رجلي
العرعاء. وحيث أعطيتهم ما يريدون وفي نفس الوقت ما أريد!

بعد زيارة للشيخ عمرو الذي عرفت أنه انتقل إلى العاصمة هو الآخر إماما لأحد مساجدها، قررت أن أستعيد ذاكرة سنة للخلف. ذاكرة شاب ريفي.

- يعمل ما عليه لا يلهو ولا ينحرف. فقط لا يترك للشيطان فيه حظ، لكن الحظ لله. هو من سيرسم طريقه.

هذه هي الكلمات التي ودعني بها الشيخ عمرو حين رحلت من بلدتنا الصغيرة حيث كان إمام جامعها الكبير وكنت من مقريه على مدار سنة أو يزيد. الشيخ عمرو ذو النفوذ الروحي الذي لم أر بريقا مثله. الشيخ عمرو الذي كان يحضر له الجميع ويستمع له الجميع ويعجب به الجميع. لكنه كذلك لم يقرب الجميع لكنه انتقى منهم انتقاء. اختارني من النشء القليل ممن اختار بجانب شباب آخر ورجال. ورغم عمق صداقتنا التي ما ظننت أنها تنفك أبدا، ورغم الدموع التي ودعته بها قبل سفرنا بيوم واحد إلى العاصمة، ورغم وعدي بزيارات كثيرة متكررة، إلا أنني أذكر أنني أنا كان من يمنع أبي من زيارة بلدتنا الصغيرة. إما كسلا أو حرجا. لفترة تحول كيان الشيخ عمرو خلالها إلى ذكرى أتذكرها حيناً وأنساها أحيانا. أما الآن فقد صار فكرة راسخة خاصة بعدما علمت أنه هنا في الجوار وأنه لم ينسني وأنه في هذا التنظيم الأنور والأكثر سرا.

-لعلك تعرف أن هذا ربما كان لقائنا الأخير الاستثنائي فقوانيننا لا تبيح لقاء إلا لضرورة وفقط مع الشخص السابق أو التالي في سلسلة الأعضاء.

هل انتقاني الشيخ من البداية لأكون معهم، أم أنه حين انتقل إلى هنا فكر في وأرسل رسله بالبشرى؟ لا يهم. فالوقت قد أزف ومهمتي الآن هي "لا مهمة". مهمتي أن أكمل ما بدأت وانتظر. وفي نهاية هذا العام كنت أقف في الشباك ذي ضلفة الشيش المغلقة فافتحها مبتسما بينما أُمي يصلني صوت زغرذتها حين علمت أنني بقيت من الاوائل على الكلية عن العام باكملة. قلت لها: -ولسه.

م

في نهاية ذلك العام كانت نهاية قلبي النابض وعقلي المندفع بقوة. تحولت بعدها إلى صنم أو تمثال لا تزيده السنون غير تأكلا. في نهاية ذلك العام مات أبي لأعلم فقط قيمته حينها. ودخلت أنا كلية العلوم بعد لأي. أما ندى فقد دخلت كلية الاقتصاد ولم يمر شهر حتى تفرقنا فراقا بائنا بعد أن اختلفت مسالكنا ومواعيدنا وبعد مشادة بيننا حول معاملتها لشلة كليتها الجديدة. حتى الشيخ عمرو الذي كنت قد نسيت أمره انتهى به الحال إلى التوقف بعد انتهاء موسم الحرية المفتوح. لم يبق معي سوى عبد الله الذي رافقني في ذات الكلية كذلك والذي لم يبق أحد على حاله إلا إياه من المرح والفوضى وعدم المسؤولية ليثبت لي أنه المنهج الصحيح في الحياة لكنه فاتني كما فاتني كل شيء وكل منهج وكل فكرة وكل شعور كي اصير ذلك الصنم الذي لم يفتت جموده إلا حمل أثقل كاهله يتعلق بأمه العزيزة.

2019
(2)

-1-

الشمس القانظة داخل جدران الاستديو ما هي إلا وهج الكشافات العملاقة التي تحيل ظلام العاصمة الفقيرة إلى نهار مشرق تعكسه ديكورات البرنامج الأشهر في البلاد. الجدران المضئية المتغيرة هي أحدث التقنيات التي تم استيرادها. فالديكور ليس ثابتا باستثناء ربما المنضدة الزجاجية الضخمة والورود عليها والتي بدورها تتغير يوميا وبإشراف خليل الشناوي نفسه أشهر مذيع في البلاد. فهو يحرص أن يلائم لون الورد لون بدلة اليوم. إما بالمشابهة، أو بالمقابلة. فالورد الأصفر للبدلة البيج والورد الأبيض للبدلة السوداء، أما الأحمر فهو للبيضاء وهكذا. غير أنه في الفترة الأخيرة صار لا يهتم كثيرا، بل ربما أتى متأخرا. بل ولوهلة ذات مرة لبس نفس البدلة ليومين متتاليين. وحين نبهه أحد أعضاء طاقم التصوير. طرده. طرده بمنتهى البساطة والهدوء وبأسلوبه المشهور الذي جعله مشهورا. في الحقيقة أن سلطته داخل القناة أقوى من كل اعضائها مجتمعين بما فيهم صاحبها رجل الأعمال الذي يتحمل خسارة القناة رغم مواردها الضخمة نتيجة جشع خليل الذي لا يتوقف. لكنه يرى أنه يستحق وهو مستعد لدفع المزيد. أما خليل الذي ذاع صيته بعد برنامج خان الخليل فهو يرى أنه يقدم من خدمات ليس فقط لرجل الأعمال صاحب القناة وليس فقط لغيره من كل رجال الأعمال بل والحكومة نفسها التي يهاجمها ليل نهار ويسخر منها بلا توقف.

إن مرحلة خليل جاءت إثر مرحلة لعينة من الإعلام؛ مرحلة كانت فيها كل البرامج والجرائد تفتتح بنفس العناوين وتتكلم في نفس التفاصيل، حتى صار الأمر أقرب إلى السفسطة في بلاد متأزمة. حسنا لا ينكر أن هذا مناسب لمرحلة وإن كان يمجتها وقتها أشد المقت. لكنه لم يعد يجدي. وحدث شيء غريب لم يحدث قبلا بل ويخالف كل النظريات. لقد توقف الناس تقريبا جميعا عن قراءة الجرائد ومشاهدة البرامج في وقت واحد وبدون اتفاق. فجأة احترقت كل الأسماء والأوراق. كسدت كل بضائع العقول التي قررت الاكتفاء من تناول الهراء. خسرت حينها المؤسسات الإعلامية ما خسرتة وتوقف نصفها بالفعل. حينها كان خليل، وفي برنامج اجتماعي ساخر على أحد قنوات المنوعات التي هاجر إليها الناس بعد تركهم باقي القنوات، بدأ مشروعه السياسي. وبعد أن أخذ الضوء الأخضر من القناة التي بدورها —وبالطبع— أخذت مثيله من الحكومة التي لم تعرف كيف تتصرف في أزمة الإعلام. هنا كان خليل. والحق أنه بالفعل لم يأخذ أوامره قط من أحد. وهذا ما ميزه وهذا ما اراده الناس. كان حرا وناقدا وساخرا. وكان أيضا ذكيا في حريته. اقترب من الناس واقترب من السلطة. وصار له الجناحان اللزمان للطيران. للارتفاع. لذا كان ارتفاعه السريع وفي غضون سنة ربما كان الأول بانفراد وظل محافظا مدة الثلاث سنوات تلك في توازن دقيق كالذي يشمل الطائرة حيال طيرانها. ولم يكن ير تعارضا بين ارضاء الناس وارضاء السلطة. التعبير عن الناس والتعبير عن السلطة. واعتبر نفسه حلقة وصل بينهما يصل رسائل كل منهما إلى الآخر. الشعب يسخر من الحكم فليسخر معهم. والحكومة تطلب من الشعب فليطلب معهم وهكذا أحبه الجميع وأحب نفسه. لكن الفترة الأخيرة كانت الأكثر صعوبة له. التوازن صار صعبا حقًا. منذ نجاح

الرئيس في فترته الثانية وكأنه لم يعد يهمله شيء. من قبل كان يغضب على الأقل. يعطي الأمل على الأقل. يسافر ويتحرك على الأقل. الآن لا شيء. والأمور تتدهور ولا شيء والشعب صوته يعلو ولا شيء. اضطر أن يجازف، أن يرفع جناح الشعب قليلا، أن يتمادى قليلا. لكنه لم يهنا كثيرا. ففي نفس الليلة أتاه التليفون يحذره. المكالمة التي طالما خشىها لثلاث سنوات ولم تأت كإشارة لنجاحه الباهر. ثم أتت إشارة لتذبذب التوازن. لم يدر بم يرد. كان الغضب يعتمل في صدره. أنتم من أجبرتموني. أنتم الفشل. لكنه لم يستطع الرد أو النطق. والطرف الآخر لم ينتظر منه رد كلام تليفوني، بل كلاما تلفزيونيا. وهكذا في الحلقة التالية بعث باعتذار مبطن وغير مباشر. أمل أنه سيصل إلى صاحبه ولن يصل إلى الناس. لكن نظرة من عينيه تلاقت مع عامل البوفيه الذي يستمع إليه كل يوم بانصات وحب من داخل الاستديو عرف خلالها أنه وصل لكل. ربما أسعد واحدا لكنه أحبط جميع الآخرين المستمعين. هل هذا كان سبب قلة شعبية البرنامج كما ظهر في الاستبيانات بعد ذلك، أم السبب هو احباطه الشخصي وعدم اهتمامه الكافي وانحدار مستواه؟ ولكن لم يكن هذا ما يشغل باله! كان موضوع الاستفتاء اللعين القادم. كنار بدأ اشتعالها في الأفق وستنمو إلى أن تصل إلى موطئ قدميه. كان الحمقى يتكلمون عنه منذ زمن ويذكر أنه لطالما سخر منهم إلى أن قرر الزعيم الأخذ بهذا القول المغفل. فهل سيسخر منه الآن؟ لم يكن يتصور أنه قد يفعل، أن ينزع آخر الأقنعة، أن يقف عريانا أمام الجميع معلنا نيته البقاء للأبد في الحكم. لماذا يريد الجميع أن يخلدوا وكأنهم لا يعلمون أن الخلود في الآخرة، أم انهم يخشون التخليد في النار؟ الملكيون أكثر من الملك هم أول من اقترح هذا التعديل المشين في الدستور المشين بالفعل. تساءلوا ببراءة لماذا تتحدد

مدة الرئيس بفترتين من الزمن ثم يترك الحكم. ثم شفّعوا قولهم بمناقب الرئيس الذي لا ينبغي التفريط فيه. ظنوا الأمر سهلاً. كما اقنعوا الناس به من قبل سيقنعوهم ثانية متغاضين عن ظرف الزمن واختلاف الحدث. هذه المرة لم يسحروا أعين الناس بل سحروا عيني الرئيس الذي ذهل عن علو نبرة الشارع وعن مخاطر الاستفتاء على تعديل مدة بقاء الرئيس لتركها مفتوحة. أعداؤه الذين انتهوا سيقظهم من جديد بل سيخلق غيرهم ممن لن يصبر أكثر من ذلك وقد تكون تلك هي القشة المنتظرة. كل ذلك كان يعتمل في ذهنه وهو يعد لحلقة اليوم. ماذا سيقول؟ هناك الملايين تنتظر رأيه وعرضه. رأى أن الحل الأمثل هو عدم الإدلاء برأيه سيأتي بطرفين مؤيد ومعارض ويتحدثا. وإن كان يعلم أنه ما من أحد معارض حقا له حق الظهور. فقط سيظهر معه أراجوز يتظاهر بالمعارضة الضعيفة التي تقنع المشاهد أنها على خطأ. وهذه لن تكون المشكلة الوحيدة. المشكلة الأخرى أنه ينبغي أن يكون على الحياد، وهو ليس على الحياد البتة. إنه سينفجر غيظا في الواقع. لكن رغم ذلك كان أفضل الحلول. أبلغ فريقه بما يريد. أجروا اتصالاتهم ليحییئ سليم الفاتح أحد عتولة النظام مقابل جميل فريد رئيس الحزب الكرتوني الخزعلي كما يسميه. أتوا قبله بالطبع وقبل ميعاد الهواء بخمس دقائق ليس إلا.. كان قد وصل. غائر العينين غير مهندم. وقد قرر أن يعكس مزاجه وقرفه في ثيابه وشكله. لكن فريق البرنامج لم يتركه سرعان ما جاء الماكيبير يدهن وجهه بزيت ويرش بعض البودرة. وجاءت مساعدة المخرج الجميلة التي تثيره لحد الجنون لتعدل من وضع الكرافطة وياقة القميص. ولما لم يتبق إلا ثوان وبدأ العد التنازلي للظهور، أتاها مسرعا عامل البوفيه بكوب الموكا الذي

طالما أحبه. نظر في عينيه ليجدها مازالت منطفئة ولما انسحب وقال المخرج: هوا.

انطلق قائلاً: اعزائي المشاهدين أهلاً بكم ومرحباً في حلقة جديدة وخاصة وهامة عن أهم ما أصبح يشغل البلد. الاستفتاء المنتظر.

ع

حالة عدم الإكتراث التي تحتويه بالكامل لا يكسرها شيء، ولو كانت أمّا باكية وعمّا يتظاهر بالغضب. بدأ الأمر بأمه التي لم تترك يوماً إلا وايقظته كي يذهب للسجل الحكومي ويستخرج شهادة عائلية تفيد بأنه كبير أسرته وعائلها بعد وفاة أبيه. بتلك الشهادة سوف يستبعدوه من التجنيد الذي اقترب موعده. كان يساير هواها ويسوّف ما سيفعل. حتى انه ذات مرة استيقظ بالفعل ونزل إلى المقهى وكأنه زار السجل. وحين عاد طلبت منه أمه الشهادة التي استخرجها. حينها لم يجد بدا من الحقيقة.

ذهلت الأم ولم تصدق. ابنها الذي بقى لها سيتركها هو الآخر. -يا أمي لا مستقبل لي قط. لكن قريب عبد الله أخبرني أن لي مستقبلاً في الجيش. لو صرت ضابطاً احتياطياً سيستطيع أن يحولني إلى ضابط عامل.

قالها لعلها تفرح أو تتفهم لكنها صمتت. تركته ودخلت غرفتها وترك هو الشقة كلها ليتسكع مع عبد الله ليلتها ويعود وينام ليجد عمه من يوقظه في الصباح. منذ متى لم ير عمه. لعلها سنوية أبيه قبل ثلاث سنوات. آخر سنوية قبل أن ينساه الجميع بما فيهم

هو. لم يرحب به بل لم يسلم عليه ولم يبد على عمه أن هذا سبب امتعاضه.

-فلتغسل وجهك ولتفق.

خرج من غرفته ليجد أمه جالسة على كرسي السفرة المتهالك وثمة دموع على خديها. في طريق ذهابه إلى الحمام وعودته فكر في الأمر لكنه لم يصل إلى قرار ولم يعرف ماذا يقول. فقط جلس على كرسي السفرة الآخر يحدق بعمه الذي يحدق إليه بدوره. ولما لم يتكلم أحد قرر هو الكلام.

-صحيح عنك ما سمعت؟

هز محمود رأسه مستفهما.

-لا تتصنع البله. لقد زورت في شهادتك كي تدخل الجيش

-لا تقل هذا الكلام عن التزوير. أنا فقط تجاهلت أحد الاوراق

-ورقة مؤثرة

-تمنعي من العمل

-تمنعك من التجنيد

-اعتبره فرصة عمل.. عقد شغل

-الناس تهرب من التجنيد وأنت تدخله بقدميك

-الجملة المعادة المكررة التي ما فتئ الجميع يرددها.. ثم الرد

المحفوظ كذلك الذي ما فتئ يردده.

-لا تعتبره تجنيدا قلت. سوف أعمل ضابطا

- وانا؟

قالتها أمه قاطعة سجال الكلام بينهما ونظرت اليه مستعطفة

فخفض نظره كي لا يتأثر.

-أنا ستركني وحيدة.. ستركني وليس لي غيرك بعد أبيك مع

أخوتك الصغار. تتركني وقد داهمني المرض!

لا يدري أيبكي أم يضحك. وهل فعل كل هذا إلا لأجل مرضها. لكنه لا يستطيع إخبارها هو يعرف أمه وعزتها. لو أخبرها بنيتها لأقسمت إلا تسمح بمبضع جراح ليمسها في الجيش أو خارجه.

-البركة في عمي إذن.

قالها وقد رمى الكرة في ملعب العم الذي نظر إليه شذرا. فهو يعلم أنه يعتبر أقرب الأقرباء لها الآن فهي حتى لا تملك إلا أختا واحدة خارج البلاد مع زوجها. وقبل أن يتكلم أردف محمود -وعبد الله وأسرتة لن يتركوك اطمئني.

وقبل أن يتكلموا قام واتجه إلى غرفته يكلم عبد الله من هاتفه كأنه تذكره حين أتى على سيرته وكأنه أراد أن يخرج ثانيا من همه كما فعل بالامس. ولما رد متلججا قائلا إنه في الجامعة.

-وماذا تفعل في الجامعة يا مجنون هل نسيت أن الدراسة والامتحانات انتهت.

ولما لم يرد أردف بخبث:

-بتلعب بذيلك؟ قابلني عندما ترجع.

الحقيقة التي خباها عبد الله كل تلك السنوات عن محمود أنه كذلك غارق في حب ندى حتى النخاع. يعرف أن كل أبناء جيله أحبوا ندى حتى النخاع لكن الآن انتهى الأمر بالنسبة لهم. فقط اثنان مازالا يهيمنان بها. وللأسف هما هذان الصديقان اللذان لم يفترقا قط. حتى ندى لم تفرقهما. ليس لمقاومة منهما بل لطبيعة ندى الأقرب إلى عرائس البحر. إنها تجتذب الجميع حتى يقعوا في حبالها ثم تتركهم يغرقون. في البدء خمن أن سر اعجابها بمحمود وسامته التي داراها حينها عدم اهتمامه. لعلها اكتشفته. لعلها احبته. لكن لا. كان السبب تقواه. لم يكن إعجابا طبعا لكن كان غيظا. كيف يستطيع مخلوق أن يحجب عينيه عني. كيف

تعلو أنفه على أنفي. ولو بداعي الدين. هل هي متدينة بتدين أبيها الذي لا يرى في تدين الملتزمين إلا كل شر، أم هي تعادي التدين في تلك الحالة باعتباره حائلا بينها وبين قلوب المغرمين؟ لم يعرف قط. فقط كان يعرف مواعيد دراستها ومواعيد نزولها وخط سيرها ومكان جلوسها في الجامعة. وربما راقبها ذات مرات في كل تلك اللحظات، خاصة الجامعة التي ما فتئ يذهب إليها خاصة كليتتها بدعوى لقاء صديق قديم عرفه كزميل عابر بالأمس البعيد. حينها تتلاقى نظراتهم. كان جريئا لا يخجل ولا يخفض البصر. وكانت تبتسم. قطعا كانت تبتسم. لم يعرف قط سر الابتسامة وهي تقف مع اصدقائها الكثر وجلهم من الذكور سليلي المجد لكنها في نفس اللحظة تبتسم لزميل عابر طالما ضايقها أيام المراهقة. هل هي تعرف أنه يأتي خصيصا لأجلها؟ هل تشجعه على مزيد من المجئ؟ هل تعجب به مثلا؟ هل يذكرها بذكريات تحبها أم هي سياسة اجتذاب الفراشات؟ وكان كل أمله خاصة بعدما أنهى دراسته بأن يجد عملا مناسباً يؤهله أن يتقدم حينها لخطبة الأميرة. المشكلة التي كانت تؤرقه أكثر من كل ذلك، ضميره. وهل هكذا يعتبر انه يخون صديقه الذي ما فتئ حتى الآن حين يجلس على المقهى في الميدان ينتظر عودة ندى. لكنه قرر أن الزمان كفيل بأن يجعله ينساها. في تلك المرة استيقظ ضميره أكثر. فقد كانت امتحانات كلية العلوم قد انتهت أما كلية الاقتصاد ففي يومها الأخير لذا ذهب بدعوى الاطمئنان على صاحبه. لم يره لكنه رآها. ربما للمرة الأخيرة هنا. لكن المرة الأخيرة كانت مختلفة. رآها تستأذن من رفقتها لتتجه نحوه. في البدء ظن أنها ذاهبة إلى الكافتريا في الجوار لكنها كانت بالفعل متجهة نحوه. مدت يدها تجاهه قائلة -ازيك يا عبد الله.

نظر إلى يديها للحظة وكأنه لا يصدق. هل يستجيب الله الدعاء لمثله؟ فمذ ما يقرب من الست سنوات دعا الله أن يلمس ندى مرة ولتكن يديها ذات الاصابع الرفيعة الطويلة والأظافر اللامعة البيضاء. لكنه عاد إلى رشده حين لمس يديها فعلا، رادا لها السلام وأحس بخيبة الأمل قليلا. فيداها لم تشعنا نورا ولم تحوله إلى ملاك. قطعت خيبة أمله بصوتها الرخيم الذي لازال مثيرا.

- أراك باستمرار لكن لا تأتي الفرصة واليوم هي الأخيرة. لم يرد ثانية. في الواقع لقد الجمته الدهشة. أما هي فلم تدهش قط سواء من لقائه أو من صمته. وكأنها كانت تتوقع أو تنتظره وتريده، كي تقرر ما عندها. دعتة إلى الجلوس جانبا. سألتة عما يشرب. فاسيقظ أخيرا من غفوته

- واجب علينا.

-تعزمني وانت في كليتي؟

-الرجل رجل.

وقام إلى الكافيتريا واختار أغلى مشروب منها وأتى مسرعا.

-ميرسي

كان قد أفاق. هو يجلس الآن جنبا إلى جنب مع ندى. بين وجهيهما مسافة شبر. أطال النظر حينها متشعبا بملامحها القريبة التي طالما اختلس لحظات اليها وهي بعيدة. اكتشف تجعيدة ما وبعض شعيرات غير مهذبة مع هالة سوداء خفيفة أسفل عينيها. لكنها ظلت جميلة. جميلة لدرجة الخوف من الفتنة ولو وسط كل هؤلاء الشهود. انتهت من عصيرها الطبيعي المستورد لنقول له -انتهيتوا بالطبع من الامتحانات.

بدأ الحوار التقليدي عن جو الامتحانات وصعوبة الكيمياء واضطهاد الفيزيا .. و.. لكن لحظة من كانت تقصد بالجمع في فعل الانتهاء. ربما تقصد الكلية عامة وربما.

-وازاى محمود؟
أُسقط في يده. ماذا يقول لها. يحبك. ماذا يقول لنفسه.. أخونه؟
لكن أية حماقة؟ إنه يجلس معها للمرة الأولى بارادتها هي في
جامعة مفتوحة.

-الحمد لله. انتهى من امتحاناته معي وجلس بمنزله فهو قليل
الحركة

-أراه على المقهى كذلك.

-وهو يراك و..

لَمْ يسحبه لسانه وليس هو من يسحبه.

-هل مازال يذكرني؟

لم يرد

-فاكر لما ابلغته رسالة من خلالك؟

لم يرد.

-اذلك اجلس معك الآن واستعيد تلك الذكريات.

قرر أنه صمت أكثر من اللازم

-ذكريات.. ايام وعدت.

-لكني اريدها أن تعود أريد أن ابلغه رسالة من خلالك.

نظر لها بقوة اندهاش

-أريد أن أخبره أنه أنقى من رأيت وأنه لازال يزور أحلامي

وأن...

تدخل بسرعة

-استمحيك العذر أني لن ابلغه أية رسائل

-وأنى أحبه!

وفي تلك اللحظة رن جرس هاتفه.

-2-

سليم الفاتح على عكس شكله الموحى بالكبر إلا انه أحد الوجوه الجديدة. أي نعم، لا يملك كاريزما المتحدثين الرسميين من وسامة ودبلوماسية. لكن لماذا أتوا به إذن؟ كان من قبله فاروق أمين وكان أكثر دبلوماسية وشيكة. فالمطلوب الآن هو العكس. لن نصير متسامحين أكثر. لن نسعى لرضاكم أكثر. حان الوقت كي تعرفونا على حقيقتنا المتمثلة في هذا المتحدث ضخمة الجثة قاسي الملامح غليظ الصوت. وكانت لسليم رغم ذلك شعبية، نابعة ليست عن حب لكن عن تنذر. فسليم عالي الصوت وساخر دائما ولا يترك لمن أمامه فرصة للكلام، فما بالك لو كان من أمامه جميل فريد. وجميل فريد هو جثة هامة تبلغ من العمر أردله. عاصر كل العصور وتلون بكل الألوان، وصار كالتابلوه على الحائط يغيرون لون الحوائط من تحته لكنهم يتركونه كما هو. فهو تراث. جميل فريد صغير الحجم وقصير اللسان يلعب دائما في المضمون. معارضة راقية. معارضة كما يقول ليست من أجل الحكم لكن من أجل تقويم الحكم. ورغم أن الحكم لم يرق قط لكنه ظل يقوم بدوره. والغريب انه ظلت له مصداقية عند بعض الناس. لكنها مصداقية العجزة حيث يظن الناس بهم الحكمة والبركة أما المصداقية السياسية فأخر من انضم إلى حزبه عجوز واحد وربما كان منذ عدة سنوات! كان خليل يدرك كل ذلك لذا شعر بمزيد من القرف والثقل ولو استطاع الاعتذار عن الحلقة أو الحياة كلها في اللحظة تلك لفعل، لكنه كان شديد التحمل لذا

نظرة إلى الورقة الاسترشادية من الإعداد واختار سؤالاً يفتتح به الحلقة ووجهه لسليم:

-لماذا الاستفتاء على الدستور؟

كان يتوقع كالعادة عدم الإجابة قط على السؤال ومن شخصية عدوانية كسليم سيكون التجاهل عن طريق الهجوم ستكون الإجابة سؤال على السؤال.

-وانا اسأل لماذا الخوف من الاستفتاء على الدستور. إنه استفتاء. أي سؤال. ستجيب عليه بما تراه. لا يعجبك قول لا يعجبني. لكن لا ترفض فكرة من الأساس هناك من يريد لها.

-ومن يريد لها يا أستاذ سليم؟

-يووووووه كثير. منذ أن جدد لفخامة الرئيس في ذلك المشهد المهيب والناس تتساءل ألن يتجدد هذا المشهد مرة أخرى؟

أصاب خليل الضجر حين تذكر تلك الحملة المصطنعة التي لم يكفوا عن ترويجها، لذا قرر تحويل الحديث إلى جميل.
-استاذ جميل سأسالك سؤال استاذ سليم. لماذا الخوف من الاستفتاء؟

يتنحرج الرجل الوقور أو من يتظاهر بذلك

-أنا أحب البدء بنقطة اثارها الاستاذ سليم. موضوع ترشح السيد الرئيس. لازم نعلن أن احنا مش ضده. لكن الاختلاف على الآلية.

-إيه الآليات الأخرى؟

يقولها سليم مقاطعا فيتلجلج جميل

-الـ... أولاً الرئيس لا ينبغي أن يظل رئيساً كي يظل في القلوب وعلى الرؤوس فهذا قدر العظماء أينما وجدوا.
-ومن أنت لتقرر ذلك. الرئيس لا يريد الحكم لنفسه لا سمح الله. لكن للشعب الذي يحبه ويرى فيه الأمل.

كاد خليل أن يضحك أو لعله أراد تصحيح الجملة: كان يرى فيه الأمل.. كان. فهل يصححها جميل لكنه أجبن من ذلك وسيتراجع عن خط دفاعه الأول إلى الثاني بسرعة.
-الشعب يا سيدي قد يختار الرئيس إلى الأبد لكن هذه ستكون ملكية وليست ديمقراطية.

بدأت الحيرة للحظة على وجه الفاتح. ربما لأنه لم يفهم هل هذا مدح أم ذم. ربما لأنه أوحى إليه بفكرة جديدة وهي الإستفتاء على الرئيس ليس لفترة إنما مدى الحياة. ولما شغله التفكير ولم يرد ظن جميل أنه يضمر شرا لذا سارع بالإكمال:

-ولا مانع بالطبع إذا كان في الأمر مصلحة، لكن هناك طرق أكثر شيابة. وليكن مثلا فترة انتقالية بعد موعد رحيل الرئيس الدستوري ثم يعود الرئيس إلى الانتخابات بعدها لفترتين مجددا.
تدخل خليل هذه المرة متظاهرا بالجدية

-ولكن هذا الحل ليس دستوريا فالدستور يتكلم أن المدتين لا تجدد ولم يأت قط على ذكر ما ذكرت من فترة انتقالية.

-أرايت.. أستاذ خليل انها معارضة من أجل المعارضة. ففي كل الأحوال سيعقد استفتاء ولو على تطبيق فكرته الرعناء.

ويبدو أن لفظ الرعناء لم يعجب جميل فتدخل مقاطعا.
-أي فكرة رعناء. إنها الفكرة التقدمية المتحضرة الموجودة في دساتير محترمة.

-وهل نحن مقيدون بدساتير غيرنا. إلى متى نظل تابعين؟!
زاد جنون جميل فأساس حزبه القضاء على التبعية أو هكذا يقول

-لااااا انت لا تعرف من تكلم.

-لا. أعرف جيدا

-أذن فالزم حدودك.

-انا الزمها. أنت من تتعدها الآن.
رأى خليل تطور الأمر. ولولا اشارة المخرج لما خرج إلى
ذلك الفاصل فقد كان يود اكمال المشادة عليهم يطلقون النار على
بعضهم البعض!

ع

لا يصدق أنه يعود إلى مسقط رأسه وهو مثقل بالهموم لهذا
الحد. لطالما كان الذهاب مفعمًا بالذكريات ولقاء الأصدقاء،
والأهم ترك الهموم وراء الظهور. لكنه الآن في الواقع يذهب إلى
مقابلة همه وجها لوجه. ركب السيارة الميكروباص المحملة كذلك
بهموم الركاب وآمالهم. منهم من هو عائد من قضاء مصلحة
قضيت أو لا، ومنهم من هو عائد من عمله إلى بيته ليرتاح فيه
أو يجده أكثر جحيما. ومنهم الشباب الذي يغنيه انطلاقه عن
التفكير في ظروف الزمان والمكان. ولما وصلوا وافترق كل
منهم في طريقه، ذهب رامي إلى طريق لم يذهب اليه من قبل.
ليست شقتهم القديمة وليس مقهى أصدقاء الصبا. لكن إلى بيت
مازال يذكره جيدا ويذكر ساكنه. يتخطى الشوارع الضيقة
المزدحمة القبيحة القذرة واحدا تلو الآخر ولا يكاد يصل. يقولها
في نفسه: هل طالت المسافة أم أطالها هذا المشي الكريه بين
الضوضاء والتلوث. أصاب المدينة الصغيرة كل عيوب المدينة
الكبيرة فصارت أضل سبيلا ولا مجال إذن لذكريات التمشية
الهائلة والأشجار المنزرعة والناس الطيبة والشوارع الخاوية.

وعندما تحمل الهم تصير الدنيا سوداء أكثر مما هي عليه. لكنه وصل. البيت القديم كما هو تقريبا إلا من طلاء حديث نوعا ما لجدران الفيلا القديمة ذات السور الذي نمت من خلفه الأشجار المتسلقة ومن خلفها عدة نخلات وأشجار في الحديقة الصغيرة. ضرب الجرس وانتظر. فتح أحدهم لكنه خمن من هو.
-لا بد من أنك جاسر.

-من أنت؟

كان شاربه قد بدأ في النمو وصوته يحاول تخطي مرحلة الطفولة

-أريد الشيخ عمرو. قل له رامي الشامي.

-اتفضل في المضيضة لحظة واحدة.

وانطلق الابن البكر للشيخ عمرو يناديه بينما رامي يتهاذى أسفل تكعيبة العنب التي لا يصدق انها ما زالت موجودة ليجلس على كنبه بجوار باب الفيلا. كنبه كان هناك ثلاث منها يجلس عليها كثير من الصبيان كان هو أحدهم عدة مرات ووحده بينهم عدة مرات أخرى. ثوان وسمع وقع خطوات قادمة. تلاها وقع دقات متسارعة من جانبه الأيسر ومن جانبه الأيسر أيضا خرج الشيخ عمرو. قائلا قبل أن يراه

-السلام عليكم ورحمة الله

تلجلج قليلا وكأنه نسي الرد الشهير ثم تذكر.

-وعليكم السلام.

مد يده يصفحه لكن الشيخ عمرو احتضنه أولا. دفع ما سرى في جسده. قوة ما اكتسبتها روحه. لثوان شعر بشعور لم يحس به منذ سنوات؛ شعور بانه سيغير العالم. ولثوان أخرى شعر بسخف ما جاء من أجله. ما الضير في تضحية صغيرة كذلك. ثوان أخرى

وخرج على أثرها من الدوامة داخله حين نظر إليه الشيخ بعدما جلسا فقال له:

-سألت عليك في مسجد الشريف أخبرني أحدهم أنك قد رحلت منذ زمن.

قطب الشيخ

- ألا تذكر ما أخبرتك به في آخر مرة التقيتك؟

بالفعل يذكر. من المفترض إلا يسأل عنه ثانية أو يقابله مرة أخرى. لكنه ما أتى إلا ليسترجع هذه المرة. كانت منذ ست سنوات. حين ذهب إليه -كذلك- استقبله وكأنه كان ينتظره. كان ذلك بعد لقاء ناجي.

-نعم أذكر. ربما لهذا أتيت.

مازال يذكر كيف أزال الشيخ هواجسه بكلمات بسيطة. كيف حطم دفاعاته بذكريات جميلة.

-مازلت مترددا؟

كان مترددا وقتها. هل يتبع هؤلاء القوم. هل يكون في محل ثقتهم. لاسيما والشيخ عمرو معهم، أم يتركهم وراء ظهره كما ترك من قبل الشيخ عمرو معلمه ومثله الأعلى في بلده. لكنه كان مجبرا على السفر وبعض عرض ناجي كان مخيرا. لكنه اختار. وانتظر ثم نسي. نعم أنساه طول الأمد وحلاوة النجاح حتى أنه خطط لمستقبل يمتد لعشرات السنوات متناسيا أنه تحت الطلب في كل الأوقات. وحتى حين كان يتذكر كان متأكدا أنهم سيحتاجونه حين يكمل طريق النجاح ويصير في مكان يمكنه من أن يفيدهم. لكن الآن. لماذا الآن؟ وماذا يملك الآن؟

-كلا. كلا لقد أقنعتني كما أقنعتني بكل شيء من قبل لكن الآن أريدك أن تقنعني ثانية.

-بماذا؟

-هل لا تعرف حقاً؟

ابتسم الشيخ الذي مازال يملك ذات العينين الوقادتين واللحية المشدبة التي ربما ظهرت فيها أولى الشعيرات البيضاء ثم قال:
-لم أعهدك نسياً. لقد أخبرتك. لا أحد يعرف أكثر من شيء.
يومها أخبره أنه حتى لا يعرف بأمر قبوله بينهم فقط هم طلبوا وصاياه فقدمها. هو كذلك لا يعرف منهم إلا شخصاً واحداً وكونه قد عرفه فقد خالفوا أحد القواعد.

-لكنك عرفتني وها أنت تقبل زيارتي ثانية

-مازلت الاثير عندي واقبلك كتلميذ لا كعضو في جماعتنا..

-إذن ألا أطلب نصيحتك؟

-لا، لكن فقط تذكرها. فهي واحدة ولن تتغير.

-ماهي؟

-ألم أقل لك لقد صرت نسياً.

تنحنح الشيخ وقام من مجلسه فقام معه رامي.

-اجعل حياتك لله ولا تجعل لنفسك أو للشيطان منها حظاً!

-وهل ما سافعله يجعلها لله.

-إذا كانت نيتك لله.

-وكيف أتخذ نية لعمل دون أن أعرفه.

-لو عرفتة لفسد العمل. ستعرف في وقتك.

-أنت تعرف؟

تلاقت اعينهم. وبدا على الشيخ أنه يرغب في قول لا لكنه لا

يرغب في الكذب. ثوان مرت ثم ابتسم رامي وحضن الشيخ

عمره وقال:

-أنا أثق بك!

تحت تكعيبة العنب وخلف النخلات المثمرة، يجلس الشيخ عمرو مفكرا. يمسك بيده دفترًا به العديد من الأسماء والعناوين والأرقام، مرتبا على هيئة دليل الهاتف، لكن المدقق في الدفتر سيجده ليس من الورق لكن من القماش. القماش المفتول العريض. الغريب أن القماش له طرف عبارة عن فتلة طويلة ربما لو شددتها لانحل عقد الكتاب بالكامل. كما أن كل صفحة كانت لها فتلتها الصغيرة. هذا الكتاب هو التنظيم هو الجماعة. نسخة من ضمن ثلاثة بدونها يكون التنظيم محض أو هام. والثلاثة من القماش. أي أن بشد تلك الفتلة وخلال عدة دقائق يتحول هذا الكيان الضخم عبر الزمان والمكان إلى لا شيء. ربما لو اكتشف أمر ذلك التنظيم يوما لاسموه تنظيم الكتاب القماشي. وسيقترح هو تسميته بتنظيم نجم البحر! نعم فهذا سر تميزه وسريته. ونجم البحر كائن متعدد الأذرع لو قطعت أحدها لم يتأثر الباقي بل سينمو له واحد آخر بكل بساطة. وهكذا كان الأمر مع تلك الجماعة المتفردة التي وصل هو فيها من الأذرع إلى الدماغ. كان يجلس كعادته اليومية منذ عاد إلى بلده الصغيرة. يظن الكثيرون بل الجميع بل بمن فيهم أهل بيته أن نجمه قد خفت ونوره قد انطفئ، وأن الشيخ الذي كان نشطا يمشي على قدميه ارتضى بموضعه على الأريكة تحت الظل. لكن الحقيقة أن هذا لو حدث لزال الشيخ عمرو من الوجود تماما. ولن يحدث إلا بهذا. ما حدث أنه ربما لم يخفت نجمه أو انسحق إلا كي ينصهر في نجم أكبر كما يحدث في الفلك. كان يؤمن أن كل شيء له علاقة بكل شيء. وأنه كما للكون رب وكما أن ربه واحد وخلق له قوانين واحدة فهي تسري على الجميع. بما فيها الدين. وكما اعتاد أن يشرح لطلبته علاقة الدين بالكون والحياة كلها والعكس كذلك. لم يفهم قط اساتذته ولا كثير ممن

طالع كتبهم. كيف يظنون الدين شيئا والحياة شيئا آخر. الدين مقدس والحياة مدنسة. وكأنهم لم يفهموا أن المطهر يوضع على الجروح المدنسة ولولاه لما كانت له حاجة. والدين وضع كي ينظف الحياة ولولا دناستها لما كانت له فائدة. كلاهما متكاملان. وفي الحديث أن الله يسمح بذنوب البشر بل يريد لها ليتوبوا بينما لو لم يذنبوا لذهب بهم وأتي بمذنبين غيرهم. أما هؤلاء الواقعين في شبهة قداسة الدين ودناسة الحياة فما أشبههم بالواقعين في فتنة تفسير وجود الشر في العالم مما دفعهم إلى الإلحاد. فهم لم يفهموا ضرورة الشر وأنه من خلاله تظهر رحمة الرب. ومن خلال الدناسة تظهر الحاجة إلى الدين. قضى الكثير من أوقاته مناقشا ومجادلا في الجوامع والشوارع وعلى المقاهي والمساطب في البيوت. وكان يدرك أن التغيير في نفوس الناس ليس بالكلام وحده. وكان مؤمنا أن للحق قوة ذاتية تنصره حتى لو بدا غير منتصرا وبدا الرفض له غير مقتنع. الفكرة تكمن في الإظهار والظهور. إظهار القبول وظهور التأثير. ولا فائدة من الأول دون الثاني، لذا فهم من لم يرد إظهار القبول لأنه يعرف أنه لا مجال للتأثير. لماذا يظهر إقتناعه بشيء لا تأثير له. سيؤرقه الأمر دون جدوى. سيحاول التغيير دون فائدة. بل ربما لحقه الضرر وشرر الغضب من السلطة المعادية. في الحقيقة كان يدرك أن المعركة ليست هنا. المعركة في الأعلى. في عقل الحكم. في قلب السلطة. هناك التأثير وفرض الحق ووجوب القبول. فكر كثيرا للوصول لكن كيف الوصول دون أتباع ورفاق. كان مؤمنا أنه ليس الوحيد لكنه كان مؤمنا أيضا أن كل الظاهرين على الساحة لا يستحقون الوصول ولا يستحقون عناء الإصلاح. وأنهم لو وصلوا لسقطوا لأنه سيكون تغييرا من الخارج. قشرة سرعان ما تبلي ويعتريها الصدا ويظهر من تحتها المعدن القديم الرخيص. واصلاحهم لم

يعد ممكنا فهم مكشوفون مخترقون لاقصى الحدود. لم يصدق قط انهم الوحيدون. هناك بالتاكيد من هم اذكى وأحوط. لا بد أن لجبل الثلج الظاهر باطنا أقوى وأشد. وعندما دعا الله علم أنه سيستجيب. ليكتشف الجماعة الأكثر سرية في التاريخ. فتواصل معهم. ومن هم. بلغت بهم السرية أن لا اسم لهم. بلغت بهم أن كل أحد لا يعرف إلا اثنين من فوقه ومن تحته. بلغت بهم السرية أنهم على العهد لا يتجمعون أبدا وفي أقصى الأحوال قد تقابل كذلك أحد الشخصين من فوقك أو من تحتك فقط. سلاسل طويلة كالاذرع الممتدة لا يعرف أولها آخرها ولا يعرف بعضها بعضا، بالضبط كما الحال في ذلك الكائن البحري العجيب نجم البحر. لكن كل ذلك لم يضايقه. ما ضايقه حقا أنه لا يعرف مكانه في ذلك التنظيم البديع. لم يعرف قط أهو قرب القمة أم يلامس القاع. لكنه لم يكن يحق له الأمر أن يعرف أكثر. انقلبت السرية التي كان يتمناها إلى لعنة عليه هو شخصيا حتى أنه فكر في الإنسحاب لكنه قرر الإنتظار ودعا الله ليستجيب له ثانية. فقد أتت الأمور بما يشتهي وما لا يشتهي. فمع ثقابة ناظره في سقوط من لا يستحقون حتى بعدما وصلوا. سقط معهم وعلى سبيل الخطأ أحد أقطاب التنظيم السري. وفي اللائحة التي لا يعرفها إلا الثلاثة الكبار. لا أفضلية لأحد في شغل المنصب إلا لمن يوصي به السابق أو يوصي به الاثنان الآخران. والشيخ عبد اللطيف اوصى به هو. نعم، في غمضة عين صار هو ضمن الثلاثة الكبار في التنظيم الأقوى في البلد. لم يكن يعرف الشيخ عبد اللطيف. لكنه عرف أنه هو الحلقة التي تسبق وائل النجار ووائل هو الحلقة الأعلى منه مباشرة وهو من ضمنه. هكذا كان الشيخ عمرو الذي ظن الناس أنه نفي عن مسجده في القاهرة وكذلك مسجده القديم في بلدته القديمة حتى عاد اليها يقضي ساعتين من نهاره في

مصلحة الأوقاف والبقية تحت التكميلية في بيته خلف النخلات. هكذا كان، وكانوا يظنون، لكنهم مخطئون. فهو من طلب ترك مهمته الدعوية ليتفرغ لواجب التخطيط والاتصال. حتى ناجي ومن تحته رامي مخطئون حين ظنوه شخصا عاديا في التنظيم أو هكذا أو مهمهم. ففي الحقيقة لا أحد يعرف الثلاثة الكبار غير الثلاثة، ولا أحد يعرف أكثر من إثنين غير الثلاثة. في الواقع هم من يعرفون كل من في التنظيم ليس بالاسم لكن بكل التفاصيل. حين أمسك لأول مرة بالدفتر الضخم الذي به كل شيء عن كل أحد انضم للحركة، شعر بالانبهار، ليس فقط لوفاء المعلومات ودقتها، لكن كذلك لحجم الانتشار. هناك سلاسل بلغت المئات. أي نعم، الكثير منهم قد لون اسمه بالاحمر كناية عن عدم نشاطه أو عدم استمراره. وهناك سلاسل طويلة مقطوعة كناية عن اختراق أو تسلل. لكنها كانت تتوقف عند رقم 5 على الأكثر. فحين يسقط أحد افراد التنظيم أو يبلغ بنفسه عما يعرف وهذا رغم التدقيق الشديد في اختيار الأفراد فانه لا يسعه سوى الإبلاغ إلا عن من يعرف وهو شخص واحد لا يعرف بدوره سوى شخص واحد لو استسلم واعترف. وهكذا فشلت كل محاولات التسلل أو اسقاط التنظيم. فالذراع ينقطع دون وصول إلى الدماغ أو بقية الأذرع. بل وتحل محله أذرع جديدة. لكن الدفتر لم يكن مخصصا فقط لذلك الغرض كان مخصصا للتخطيط الدقيق والاتصال بين هؤلاء الأفراد الذين لا يجمع بينهم إلا ثلاثة صار هو أحدهم بل ومسئول التخطيط القريب. كانت السياسات السابقة تقتضي استخداما فرديا لمن وصل إلى مناصب مؤثرة مع وجود خطة قصيرة المدى وأخرى طويلة المدى. وخلال الخطط قصيرة المدى كان دوره. رأى الأمر على أنه خريطة أو ربما رقعة شطرنج. بتحريك القطع ستصل إلى الملك. خطط كثيرة وضعها

وبدأ فيها لكنها فشلت بذكاء الخصم أو انهيار بعض القطع. ولكن
وخلال خطته الأخيرة التي بدأها عبر سلسلة طويلة بدأ أقرب من
أي وقت مضى. ففي الصفوف الأمامية الآن يتقدم حصان
وعسكري!

-3-

في الفاصل كان المخرج يضحك على تعليقات خليل الساخرة التي بثها في غرفة الإعداد حول ضيفيه الأحمقين بينما خليل نفسه لم يجد نفسا للضحك حين قام في الفاصل إلى ما خلف الكاميرات وحين عاد كان الضيفان يضحكان سويا بعدما تخاصما للحظات. ويبدو أن الفاتح القى نكتة أعجب بها جميل ونسي ما كان يدعو من قبل. وقبل عد المخرج التنازلي أعلن أنهم سوف يتلقون اتصالات متلفزة طبقا لآخر صيحات الاتصال التي ظهرت منذ عامين.

-أهلا بكم ثانية اعزائي. مازال الجدل محتدما والآراء مختلفة حول هذا الإستفتاء القادم. ويهمنا أن نسمع آراءكم طبعاً. لذلك سنوفر خدمة الاتصال المتلفز على الأرقام التالية. ثم تظهر صورة لامرأة متشحة بالسواد سمراء البشرة بارزة الاسنان.

-يبدو أن الاتصال الأول قد جاء. معنا أم سعيد
-سلام عليك أستاذ خليل. سعيدة بظهوري معاك وأسلم عليك
وكل ميت الفارس.

ميت الفارس! قرية ميت الفارس الفقيرة عندهم تلفون متلفز.
خطر له أن يسألها عن تلك المعجزة
-احنا كلنا معاه. وبدون استفتاء.
أشار للمخرج أن أغلق الاتصال. لا يعترض على الرأي لكنه يكره النفاق.

-نشكر السيدة الفاضلة التي وضعت فينا ثقتها

قالها الفاتح فانبرى جميل متحمسا

-وضعت في الزعيم ثقتها ليس أنتم.

وكأنه يتحدث عن لب المشكلة لديه. إنه ليس من خلاء الزعيم، ليس من أعمدة الحكم. كان يظن أنه بمعارضته الرقيقة ربما يلتفتون له. لكن الحقيقة على العكس. ربما لو كان أقوى لضموه إليهم ولو كان شديد القوى لزجوا به إلى المحاكمة. أما الآن فهذا خياره الأنسب.

-متصل آخر.. أو متصلة.

كانت سيدة جميلة حقا بيضاء البشرة مدببة الأنف صفراء الشعر الذي سال على كتفها وبدا واضحا أين تسكن.

-أهلا بيك يا خليل. أنا أحب متابعتك دون باقي البرامج.

-أهلا بيكي يا نوران.. ما رأيك فيما نناقش؟

-والله أريد توجيه رسالة. أنا مع التجديد للزعيم للأبد. قولوا ملكية دكتاتورية. المهم أن تظل البلاد آمنة. ماذا جنينا من الديمقراطية سوى الخلاف والدمار وصار أي أحد يستطيع فعل أي شيء.

ربما هذه هي عقبتها. حرية الغوغاء. الحرية فقط للمترفين. العبيد لا يستحقونها وإلا فعلوا بها الأفاعيل. لكن أليس المترفين يفعلون بها الأفاعيل أيضا. في الواقع لا يدري خليل متى صار معارضا ثوريا. ضميره الذي لا يموت كان قد أسكته بطريقته لكن الحمقى أيقظوه من حيث لا يدرون. لم يستطع الكلام رغم طلبات المخرج بمواصلته وإلا باح بمكنونه لذا فقد أدخل المخرج اتصالا جديدا من شاب يتحدث من مكان اضاءته سيئة حقا حتى أن ملامحه غامضة وزاد الأمر سوءا لحيته النامية ليصبح وجهه وكأنه لوحة بالأبيض والأسود. كان بالماضي يطلب من المتصل

سماعه عبر الهاتف. والآن يطلب منه تحسين ظروف الإضاءة لكنه لم يستجب.

-أهلا بيك على كل الأحوال، أستاذ أحمد.

-لماذا ترحب بي دون أن تعرفني؟

هبط حاجبا خليل. أشار اليه المخرج أن يقطع الإتصال لكنه رفض فقد أراد المواصله لعله يجد فيها بعض التسلية والسخرية.

-أنت كالضيف على البرنامج وأنا ربه.

-لكني لا أريد أن أكون ضيفك. فقط اعتبرني دققت الباب لكي أقول لك كلمتين دون أن أدخل.

ابتسم خليل وقد رأى أن المغامرة تستحق الاكمال.

-إذن اتفضل

-لست أدري حقا عما تتحدثون ولست أدري حقا من يهتم بهذا الهراء. كم من مجنون فعلها قبلكم كم من دكتاتور ظل طويلا لكن كيف كان نهايته. المشكلة يا سادة فينا من البداية. نحن سلبيون وأمتنا أضعف ما فيها هم الشباب، عكس ما يُظن. لكنكم لم تكتفوا بذلك. حتى الضعف لا ترضوه لنا. تريدون لنا الموت ولتبقوا أنتم تحكموا انفسكم. حسنا. حين نستيقظ لن نكونوا أنتم مستيقظين..

-ماذا تقصد؟

-نحن أم هم يا خليل

وجهت الكاميرا على وجه الفاتح الذي كان يبتسم. وقال بدبلوماسية مصطنعة

-البلد تسعنا نحن الاثنين و..

لكن الشاب قاطعه وبادره

-أسكت أنت يا من احتلت كادر الكاميرا بكامله بجسمك

الفعل. غدا تصير كالصرصار حين نسحقك!

بدا الإنزعاج الشديد على الفاتح وابتسامة خبيثة على وجه جميل الذي بدا أحقر من أن يوجه له الشاب الكلام وانبرى الفاتح يرد:

-من أنتم. تنظيم مسلح أم خلايا نائمة أم عملاء مأجورين؟
-بل قتلة محترفون.
-كيف تسمح بهذا أستاذ خليل.
كانت هذه من سليم الفاتح، لكن الشاب عاجله:
-وسنبداً بك استاذ سليم!
وقطع المخرج الاتصال!

ع

هذه إذن هي المرة الثانية التي يدخل فيها إلى مكتب قائد الجهاز والرجل -ربما- العسكري الأهم في البلاد. في المرة الأولى كان راهبا أكثر من الآن. ليس فقط لأنها كانت المرة الأولى. لكن أيضا لأنها كانت بناءً على طلبه. وبالتالي هو من يتحمل مسؤولية هذا الطلب الخطير وإن كان يستحق أم لا. أما الآن فهو المطلوب. هو المستدعى. فكر للحظة أن هذا أخطر. ففي الأولى يعرف السبب أما الآن فلا. لكنه عاد لاطمئنانه لما تذكر نظرة الرضا في وجه القائد بعدما أنهى الإجتماع وطلب منه الإنتظار لدقائق ثم استدعاه. استدعاه ليمشي في تلك الطرقات الطويلة الهابطة دائما والتي -كأنها- على شكل متاهة. ورغم أنه مشى فيها من قبل إلا أنه بالفعل لم يذكرها ثانية وظنه أنه لن

يذكرها الثالثة. أذن فكيف يذكرها الجندي المنوط به توصيله؟
عندما وصل إلى حجرة ضخمة بها مكتبان صغيران لسكرتيرين.
قدم نفسه لأحدهما، وهو عقيد. لذا لم يعرف أيقدم له التحية كذلك
أم لا. لكنه لم يعطه الفرصة للحيرة فقد أجلسه ودخل مسرعا إلى
مكتب القائد الذي احتل بابه جدارا كاملا. ثوان، خرج العقيد
ليدخل هو. سجادة حمراء من أول الباب الضخم إلى حيث المكتب
الضخم. سار عليها حتى أدى التحية للقائد الذي بدا مشغولا ولما
رآه أغلق كل شيء وطلب منه الجلوس وطلب له قهوة.

-أعرف أنك شربت قهوة في الاجتماع. لكنك ربما ستطيل
السهر هذه الليلة.

-خير يافندم

-الحقيقة أنني أثق فيك كثيرا ومن قبل أن أراك.

-شرف لي يافندم

-أنا من طلبت من القائد السابق ضمك إلى الجهاز حين قرأت
قصتك وشجاعتك والأهم خطتك.

-كان هذا أقل ما أقوم به

-أنت من الأشخاص المميزين في مؤسستنا ككل. تستطيع
التصرف دون انتظار الأكبر منك. تستطيع التفكير وحسن
استغلال الفرص في ظل حصار للأفكار وبيئة بيروقراطية
هرمية لذا تأكدت أنني سأحتاجك ذات يوم.

غمغم المقدم أنور بشيء غير مفهوم خاصة وهو يرى القائد
يقوم من مكتبه ويلتف حوله بل ويجلس على الكرسي المقابل له
ليكون أشد مقربة.

-لولا صعوبة الأمر لالتقيتك في مكان عام مفتوح.

ابتسم بينما قطب المقدم غير فاهم.

-لكنني متأكد بالطبع أن لا أحد يتصنت على مكنتي أو يضع ميكروفونا.

-هل الموضوع بهذه الخطورة يافندم؟
-تذكر عندما جئت اليّ أول مرة وقدمت لي مشروع الأمل لمجندي القوات المسلحة بمنح اجازة يومية على هيئة قرعة أو مسابقة.

-بالطبع يافندم
-لم اقتنع بالكامل حينها لكن تطبيق الأمر رغم بساطته بعث روحا جديدة في الوحدات باكملها.
-وهو الهدف يافندم.

-لكنه ليس موضوعنا الآن. اذكر حينها لما طلبت منك استقصاء هو ما تليته أنا اليوم في الإجتماع.

-حدث يافندم.
-أنت لم تكثف بالإستقصاء بل وضعت اقتراحا أصفه بالعقري
-من ذوق حضرتك يافندم.

-أنت أكثر من التقيت يستطيع وضع حلول مبتكرة. والحل الذي وجدته باستغلال الشباب سياسيا من خلال التجنيد حل عقري.

-العفو يافندم
قام اللواء من مقامه فجأة وعاد لما خلف المكتب ومع ذلك قرب رأسه وخفض صوته.

-لكننا لن نطبقه كما تتخيل

بدا الإهتمام على المقدم

-إذن كيف؟

-الحقيقة أن هذا الاستقصاء لم تطلبه مني الدولة بل أنا من اقترحته ودون علمهم. لذا طلبت منك الوصول للمعلومات بصفة شخصية وليست صفة الجهاز ووضع حل يلهمني لشيء هام.

-صحيح يافندم

-أتعرف ما هو هذا الشيء الهام؟

-ماذا؟

-مؤامرة كبرى ضد الرئيس!

حين عاد اللواء إلى الوراء بسنة واحدة تذكر ذلك اليوم. فقد كان حقا يوم الهواتف الغريبة. خاصة في ظرف زمانها. كان يومها في مكتبه يمارس عمله التقليدي. لم يكن ثمة شيء يقلقه أو هاجس يراوده. أي نعم، كانت هناك حركة في الوزارة. وربما تحمله إلى حيث تشتتھی الأنفس من رئاسة فرع المخابرات، لكنها بالطبع ليست اليوم بل ليست الشهر بكامله. لذا عندما دق الهاتف ظنه في البداية من أهل بيته ثم تنبه أن هذا هو الهاتف الآخر. هاتف السلم الاعلى. لذا رد مسرعا.

-تمام يافندم

نادرا ما يقول لواء "تمام يافندم" لكن لا بد أن المتكلم يستحق. وعندما أكمل المتكلم كلماته المختصرة. قال اللواء ثانية.

-تمام يافندم

وما ان اغلق الهاتف حتى خرجت منه صيحة تليق به كشاب لا كشائب وسرعان ما فطن إلى الأمر وارتدى كابه ودق جرس سكرتاريته معلنا ذهابه المهم الآن إلى رئاسة الأركان.
-خير يافندم.

-لأحلف اليمين.

لم يترك له الفرصة ليسأل مزيدا من الأسئلة. فقط فرصة كي يتصل بالسائق يخبره

-جناب اللواء نازل حالا. إلى رئاسة الأركان

وبالفعل نزل اللواء العيسوي ووجد السائق يفتح له الباب. لم يخبره عن وجهته لأنه كان يبحث عن وجهة عقله أولا. ولما وجده كان قد وصل، دلف مسرعا إلى المبنى الضخم، وفي البهو كان السيد الوزير حاضرا ليجدد الثقة في بعض قادة الأفرع وبغير البعض. وقف هو مع الجدد. وكان يعرف منهم لوائين. أحدهما للمشاة والآخر للبحرية. لم ينطق أحد ببنت شفة حتى انتهى القسم. كان اليوم هو آخر الأسبوع لذا أدرك كل منهم أنه سيذهب إلى بيته أولا ثم يعود إلى مكتبه الجديد مع بداية الأسبوع. اتصل بالبيت يعلمهم بقدمه المبكر مؤجلا إخبارهم بالأمر حين عودته لكنه فوجئ أن الخبر قد نزل بالفعل في الصحف المسائية. وهكذا بدأت الهواتف تهنتته وأولهم القائد السابق الذي أحيل إلى التقاعد. صوته أصابه بالكآبة. ففي يوم كهذا سيكون مكانه. لكن من يعلم، أن طموحه أكبر بكثير. وخلال فترة تلقيه الإتصال أجرى اتصالا واحدا بالعميد مأمون يخبره بأنه سيرقيه إلى منصبه القديم ويخبره أن يختار طاقم سكرتاريته لأنه سيأخذ الطاقم القديم إلى المكتب الجديد بعد أن يقدم لهم طلب ترقية. البيت القريب كان قد وصل إليه. موكب الحراسة الذي أخلى له الطريق جعل الوصول أسرع. صعد ليجد هاتف البيت لا يكف عن الرنين. لابد أنهم الأقارب هذه المرة. وقبل أن يحتضن أبناءه الذين كانوا ينتظرونه قرر أن يُسكت التليفون أولا. رد ليجد ذلك الصوت القديم الذي رغم قدمه تذكره على الفور رغم أنه قد ظن نسيانه إلى الابد. هاتف آخر ولكنه تلك المرة أغرب من الأول.

-مبروك
-من؟
-لا أظنك نسيت.
-لكنني بالفعل نسيت.
-لكنك قطعت وعدا.
-ماذا تريد؟
-عندنا خطة مكتملة. ستعرفها من مكان لقاءنا القديم.
-وهل لازال موجودا؟
-بقاياها!

أنهى الإتصال أو أنهاه الإتصال. مروان كامل؟ هل بالفعل الدنيا صغيرة إلى هذا الحد؟ هكذا صار فتوره المفاجئ حديث مائدة الغذاء ثم سبب نفور الأبناء الذين غادروا ولم يبق إلا الزوجة التي طلب منها تركه وحيدا. هل يعقل؟ المستقبل الذي كان يراه أمامه لم يعد ير سوى ماض من خلفه. أما المشكلة فهي أنه لا يعرف أهو ماض أسود أم أبيض. أيحزن أم يفرح؟ في ذلك الماضي البعيد كان ينتظر أن تأتي ولو نصف الفرصة كي يحقق ما ظنه نصرا لرسالته. أما الآن وها قد أتت الفرصة فقد نسي كل شيء عن رسالته. أم لعلها تغيرت؟ عندما جلس للمرة الأخيرة منذ سنوات طويلة مع مروان كامل صديق الطفولة على مقهى الصبي، وأخبره انه صار منهم إذا أراد. كانت أفكارهما متشابهة. أو قل أفكاره متشابهة وتابعة لأفكار مروان المقنع دائما. مروان الذي صار مهندسا الآن لكنهم لم يحتاجوا قط مهندسا ربما يحتاجون ملازما صغيرا يكبر ويكبر حتى يصير قائدا كبيرا ويأت الفتح على يديه. فرح هو حينئذ بهذه الكلمات. خاصة والدبورة الأولى على كتفه. وافق وحينها أخبره مروان أنه لن يراه ثانية لكنه سيسمع صوته في الوقت المناسب الذي يبدو أنه

قد جاء الآن وقد صار له بدلا عن الدبورة نسر وسيفان، ولكن الشاب المتحمس صار شيخا طموحا وشتان الفرق بين الحماس والطموح. للوهلة الأولى فكر أن يتجاهل الماضي ويتركه خلف ظهره. بل ربما قاد حملة شرسة ضده من خلال مركزه الهام. لكن قاتل الله الطموح والكرسي. وكأن ترقية اليوم لا تكفيه. لقد صار يريد غيرها وغيرها مما لا يقدر عليه أحد إلا أن يقدر الله أمرا كان مفعولا!

2019
(3)

-1-

من الجميل دائما أن تحصل على عطلة. والأجمل في حالتي أن تكون عطلة حقيقية. لست مسئولا إذن عن متابعة الجميع مثلما كنت أفعل سابقا لإعداد تقرير أرفعه إلى إدارة جمع المعلومات بالجهاز. فقط سأجلس مثل الآخرين تحت الشماسي أمام حمام السباحة بينما يلهو طفلي وترعاه زوجتي. إذن ثانية النادي حول حمام السباحة لكن لا يشغل بالي شيء ولا يفتنني شيء إلا ما قاله لي اللواء العيسوي. في البدء ظننته يحاول خداعي. ربما امتحاني. مؤامرة حول الرئيس ماذا تفعل؟ هل سترفض بحزم. لكني لم افعل. ولدي أسبابي. أتذكر حين كنت صغيرا حين ربطوا بين الرئيس وبين الوطن. انطلقت علينا اللعبة وحين تغير الرؤساء وتبقى الوطن عرفت أن الرئيس ليس الوطن وربما كان عكسه تماما. لكن ما عرفته بعد ذلك بحكم دراستي وعلمي أن الرئيس هو القوة المسلحة أو العكس. لذا كان مجد أي رئيس تاريخه السابق في الجيش وصوره التي لا تنسى تكون بالبدلة العسكرية. كان أي رئيس يحرص على رضا الجيش وقياداته ويواظب على حضور حفلاته ويستدعي بطولاته في خطاباته. وكذلك كان الجيش يرضي لرئيس ويرتضيه. كنت أحب الجيش رغم ما فيه. أبي الذي توفي منذ عام فقط زرع في تلك النبتة التي تحولت إلى شجرة فارعة. أحب بدلته لونها. النجوم والنسور على الأكتاف. التحايا العسكرية. الأسلحة. الخطط والقتال. وحين لم أجد بدا من الموافقة على الالتحاق بالمخابرات لعلها الأنسب لي. خاصة بعد

اصابتي، عملت واستخدمت افكاري وترقيت. لكن الغصة ما زالت في قلبي. وزادها اختلاطي الخارجي لأعرف أن صورة الجيش لم تنتشوه عندي فقط بل امتدت إلى الخارج. وأحد الأسباب هذا الرئيس. كنت أرى أن هذا الوضع ينبغي أن ينتهي؛ ينتهي كقطع الدومينو المتراسة من الأخير إلى الاول. الرئيس يتغير فالجيش فالوطن. لكن من أنا كي أقرر. خاصة أن الوضع يؤول إلى العكس خاصة بعد الاستفتاء المزمع اقامته كي يظل الرئيس مدى الحياة. لكنني استعدت كل أحلامي أمام اللواء عيسوي. لذا صمْتُ لم أرفض والغريب أنه لم يتعجب وكأنه كان ينتظر ويعرف. قال إنه وجد في من يفكر بإخلاص، ومن يفكر بإخلاص لا بد أن يصل إلى تلك النتيجة. لكنني حتى الآن لا أعرف كيف حصل اللواء على كل تلك الثقة. ماذا لو رفضت. على أي حال لا شيء يدينه ولن أستطيع أن افعل، بالاضافة إلى انه كان سيلجأ ربما لخدعة الاختبار. ويبقى ذلك الأمر لا يحيرني حقاً. ما يفعل هو تلك القصة الغريبة عن هاتف من معرفة قديمة. شبكة سرية منذ عشرات السنوات لا يعرفها أحد حتى هم. يبدو وكأنه شيء لا يصدق. كيف لم يفعلوا قط في يد الامن. لكنه أخبرني أنهم قد وقعوا كثيراً لكن السلسلة تنتهي دائماً بعد ثلاثة أو أربعة اسماء. بل ربما وجدوا أحدهم ميتاً أو مقتولاً. هل قد يلجأون مثلاً لقتل أحدهم ليقطعوا السلسلة عن الأمن. ترى ما كنه هؤلاء الذي يقودون هذا الامر. قال لي اللواء إنهم نشطوا هذه الفترة كثيراً. ويجدونها فرصتهم المناسبة. فمن ناحية قد وصلت سلاسلهم إلى مناصب مهمة. ومن ناحية الحكم فهو في أضعف أحواله خاصة لو مُرر الاستفتاء اللعين القادم. هذا سيكون مبرراً كافياً للخروج الذي يؤيده الناس. لكن المشكلة الدائمة أن الثورات لا تنجح وينقلب عليها لذا كان من المهم ضمان إلا يحدث ذلك وذلك عن

طريق الجيش! لذا هم لا يريدون ثورة شعبية. يريدون تغييرا للسلطة يؤيده الناس. والتغيير ببساطة قتل الرئيس! والجيش له دوران، الأول هي عملية التخلص من الرئيس نفسها التي لا رحاب لها إلا رحابه. والثاني، تأمين انتقال السلطة إلى أحد كوادرن التنظيم. خطة محكمة خاصة بتفاصيلها التي ناقشناها. لكن قطع أفكارهم يقول من خلفي:

-سيادة المقدم. والله زمان!

خلعت النظارة الشمسية ونظرت. كان رفعت بيه. جاء وجلس قبالي وقال:

-فينك يا رجل. نجلس على طاولتنا المعتادة فلماذا لم تعد تشاركنا.

-مشاغل العمل أنت تعرف.

-والآن

-أفكر كذلك في العمل!

ضحك والتفت حوله يمينا ويسرة ثم قال:

-أخشى أن تكون غضبت من قلبي بالترشح للمعارضة ابترسمت

-بالعكس. أحب الرأي الآخر.

-ثم أنت تعرف المعارضة في بلادنا هي النفس الرأي لكن من الباب الخلفي.

هزرت رأسي موافقا ولما رأني رائق البال قال:

-لكن مارأيك فعلا فيما يحدث؟ البلد ستشتعل ويبدو أن الرئيس

لن يترك السلطة إلا إلى قبره أو سجنه كما فعل كل من قبله.

لبست النظارة الشمسية بغموض وقلت باستمتاع العالم ببواطن الأمور.

-هناك تغيير قريب!

وتحت الأرض كان الأمر كفوق الأرض. حتى أنه كانت ثمة شبابيك وكان خلفها -كما تخيلت- مصابيح صفراء ضخمة لتوحي بنور الشمس. هذا المكان الرهيب الذي ما ظننت أن أدخله الآن أبدا وإن كنت قد حلمت بذلك ولو على المدى البعيد. القيادة العامة للجيش. وكان الوضع مرعبا ظاهرا هادئا باطنا. فلوهلة الأولى اجتماع رئيس الأركان بكل قادة الأفرع والمناطق يبدو شيئا مهيبا. ولكن الأريحية والهدوء وكأنهم في ناد أو لقاء ودي تجعل الأمر مشجعا. وكان اجتماعهم بخصوص الاستفتاء القادم ولكن اللواء العيسوي قائد المخابرات كان ذلك موعده ليلقي تقريره شديد السرية كما أخبر قيادة الأركان. في الواقع التقرير هو عبارة عن خطته لقلب نظام الحكم! لكنهم طبعاً لا يعلمون. وقد اصطحبني معه بصفتي مهندس الخطة وإن كنت قد ظننت أن لي صفة أخرى وهي كبش الفداء في حين اكتشفت الخطة فلا يكون هو صاحبها! أدت التحية بمجرد وصولي. كانوا جلوسا بالفعل يتحدثون. ويتصدر المجلس رئيس الأركان. قدمني اللواء عيسوي بصفتي أنجب من عنده وصاحب الرجل العرجاء ذات القصة المشهورة. ابتسامة ودود من الفريق رئيس الأركان الذي آراه للمرة الأولى وجها لوجه. تلاها طلبه مني بالجلوس. وتابعوا النقاش وتابعته معهم.

-كما قلت تأمين الاستفتاء مسئولية كبيرة

لكن أحدهم قاطعه

-عفوا ولكن أرى الأمر أبسط فالشرطة ستواجه التظاهرات

وتترك لنا تأمين اللجان.

وانطلق لواء آخر

-واللجان ستكون خاوية غالبا حسب استطلاعات الرأي.

التفت رئيس الأركان إلى اللواء عيسوي قائلا:

-ما رأي المخابرات في هذا؟

تنحى اللواء كعادته وقال بصوت منخفض عكس عادته معنا

-ما ذكره السادة اللوآت صحيح لكنه جزء من الحقيقة. بالفعل

سيقاطع أغلب الشعب هذا الإستفتاء إما يأسا أو معارضة. لكن لا

ينبغي أن ننسى أن الذين لن يقاطعونه وسيتنافسون للذهاب هم

الأشرس طرا.

-من تقصد؟

-إما المؤيدين من اتباع حزب الرئيس، وإما شديدي المعارضة

الذين يذهبون لإبطال الأصوات أو لتشتيت الناس وكلا الفريقين

من المتشددين.

-تخشى الاشتباكات؟

-نعم والاعتداءات على القوات وعلى القضاة المشرفين.

التفت الفريق إلى أقصى اليمين وسأل فيما بدا رئيس العمليات

-وما هي خطط تأمين القضاة؟

انطلق اللواء الذي بدا متحمسا

-سعادتك الخطة مطبوعة وستوزع على كل ضباط المنوب

ليتلوها على القادة والجنود.

-وما أخبار قادة المناطق؟

-كل شيء تحت السيطرة يافندم.

قالوها بصوت واحد تقريبا لكن رئيس الأركان بدا غير مطمئنا

وهو يقول:

-لكن البلد لم تعد ولا الشعب.

سكت ثم أردف مشيرا للواء عيسوي.

-اللق تقريرك يا عيسوي

-الحقيقة يافندم ملخص التقرير كلنا يعرفه. وقد ناقشناه في الجهاز عندنا لعدة جلسات. الملخص أن الحالة غير مستقرة والثقة تقل في القوات المسلحة تبعاً لفقدانها في الحكم. تتم رئيس الأركان بشئ ثم أكمل اللواء. -ومن الجدير بالذكر أن حالة المجندين تحسنت نسبياً بعد تطبيقنا لمشروع الأمل ولكن هناك سبب آخر!

-ما هو؟

-حالة الإحباط العامة في البلاد. هذا يصنع توازناً ما في نفسية المجندين بين إحباط الداخل والخارج ابتسم الفريق ومن بالمجلس وقال أحدهم: -مصائب قوم عند قوم فوائد -لكن للأسف إننا قوم واحد. إلى درجة أن المخابرات العامة أرسلت لنا ملفاً بعنوان سري جداً عن مناشدتها المساعدة في قمع التمرد.

-تمرد؟

قالها الفريق مستكراً.

-نعم يافندم هناك موجة تمرد عام قادمة عند كل الفئات. لذا أريد شرح المشروع المقترح من قبلنا ووافقت عليه المخابرات العامة.

-تفضل

-أفضل أن يتلوه المقدم أنور فهو صاحب الفكرة. لاحظت استياءً ما على عدد من الوجوه لكن والله الحمد لم يكن من بينهم رئيس الأركان نفسه لذا قمت مستأذناً منه أولاً. -هناك خطة قد وضعتها وأرجو تنفيذها. نظروا باهتمام أكثر ومن لم يكن منتبهاً قد انتبه.

-تعتمد الخطة على حقيقة تقضي بأنه لا خطر من كل هؤلاء المتمردين. لا خطر ممن أيد ذات يوم ثم عارض. لا خطر ممن صدق ذات يوم ثم تشكك. من السهل عودتهم ومن الصعب ثورتهم. لكن الخطر فيمن نما على الاعتراض ووعى الفشل ولم يخدع أو يقع تحت الخدر. ببساطة من الشباب بل صغار الشباب. مهمات سادت فتوقفت غير أن الفريق اثار لي لأكمل - المفاجأة المعلومة للجميع أن هؤلاء الشباب يكونون في جعبتنا عاما على الأقل بل يزيد، خلال التجنيد الاجباري. عادة يتم تجنيد الجواسيس في عدة اشهر ليصيروا كذلك طول العمر. فما بال تجنيد ثلثة من المعارضين أو الطائشين. -لكن ما معنى هذا. هل يجند الجيش مليوني شاب يتخرجون سنويا.

قالها احدهم مقاطعا غاضبا لكني قلت بثقة:
نحن نفعل ذلك بالفعل لكننا نُسيء استغلال الأمر وبدلا من زيادة الثقة فينا تنعدم من سوء المعاملة والتدريب والنظام. سارت مهمات بينهم للمرة الثانية. وهذه المرة لم يشر لي الفريق لأكمل بل سكت ويبدو انه غير فاهم هو الآخر لذا قلت موضحا.

-التجنيد لن يكون صنعا لجاسوس بل ضمانا لولاء. بالاضافة لانشغال بعيد عن أعمال التمرد. لن نكلف شيئا فقط سنغير طريقة التجنيد ونجعله نظاما صارما به المزايا الحقيقية للعسكرية. نسترجع الثقة من المؤيدين والهيبة من المعارضين. استمرت المهمات وانبرى أحدهم لم يتكلم من قبل. -وهل تظن أن النظام العسكري السليم بهذه السهولة. إلا تدري كم سيحتاج ماديا وتدريبيا. سنحتاج لإعادة هيكلة الجيش كله إذن.

سكت الجميع يفكرون ونظر لي البعض كأنهم أوقعوا بي لكني قلت باريحية.

-الخطة الموضوعية على عدة مراحل. والمرحلة الأولى لا تشمل إلا نمودجا مصغرا لكنه الأهم. وهي كلية الضباط المدنيين. فهي مكان محدود يسهل تغيير نظامه وبها يدخل أعلى الكوادر المدنية للتجنيد بعيدا عن العساكر المدنيين.

قال نفس اللواء العصبي

--هل تعرف يا بني نسبة الضباط إلى الجنود. لا تكاد تذكر.

قلت بهدوء

-لكنهم الأشد خطرا. فأولا هم الأعلى تعليما أي الأكثر تأثيرا في الحياة المدنية. ثانيا هم الأعلى رتبة فهم قادة باقي المدنيين في العسكرية أي هم الأكثر تأثيرا عندنا أيضا.

سادت لحظات من الهدوء والصمت ونظر رئيس الأركان إلى رئيس المخابرات نظرة ذات معنى.

ثم نظر إلى الجميع خاصة من بدا منهم الامتعاض وقال:

-تكتيكات الحرب غير تكتيكات المخابرات لذا ارجو التفكير في الأمر.

كانت خطة اللواء معتمدة تماما على خطة التنظيم. سيتخذها مطية، أو سوستة يقفز عليها. سيوفرون له القاتل. عبر كلية الضباط المدنيين أي أنه لن يكون ابنا للجيش لكنه سيلتحق بالجيش وهذه نقطة مهمة. إبعاد الشبهة عن الجيش قدر المستطاع خاصة إذا كان قدره احتضان العملية وتوفير مستلزماتها. كما سيوفرون الرأي العام المناسب عن طريق الأزمات بواسطة معروفهم الذين

تَبَوَّأُوا ما تَبَوَّأُوا في الحكومة، والإنفلات الأمني عن طريق مجهولِيهم الذين سيظهرون من جديد. حينئذ لن يبكي أحد على الرئيس المقتول. ثم تحدث الانتخابات التي سيضمن الجيش حياها ولن يسمح بأي مراكز قوى في استغلالها. وفيها سيتشرح أحد كوادِهم المخفية وهو من أشهر السياسيين على الساحة. وحين يفوز سيعين العيسوى وزيرا للدفاع ليضمن له ولاء الجيش. خطة جيدة ينقصها التنفيذ. وسيضمن عيسوي تنفيذها بالكامل حتى نهايتها التي ستتغير بالطبع. فالحقيقة أن عيسوي فقد كل الولاء بهؤلاء. لقد تركوه مدة طويلة حتى نساهم وحين ذكروه كانت افكاره قد تغيرت. مثله مثل كثيرين ممن اغلقوا الخط معهم أو حتى بلغوا عنهم. لكن اللواء كانت خطته مختلفة. سيجاريهم ويحبط خططهم من الداخل لينفذ خطته هو. والتي كان من ضمن بنودها ربما لقائي مع خليل الشناوي. نعم ذلك الإعلامي. كان هو المختار بين كل الإعلاميين نظرا لمصادقته التي ربما تراجعت قليلا في الفترة الأخيرة وتراجع معها مستواه. لكنها عادت لتقفز إلى معدلاتها القياسية بعد الحلقة إياها. تلك الحلقة الأكثر مشاهدة على الإنترنت رغم أنها لم تُعد قط على التلفزيون. وليست كل الحلقة بالطبع بل مكالمة هذا الشاب الأخيرة التي فجرت آهات الكثيرين. كانت تهديدا، أي نعم، لم يتحقق حتى الآن لكنه كان بمثابة أسوأ إشارة للنظام الذي لم يتراجع عن غيه. ولعلها كانت سنارة ما ألقى بها التنظيم لكي يقيس بها شعبية التمرد. علمت أنه هُدد بعدها من إدارة القناة التي هُددت بدورها من الحكومة. ربما لهذا اتيت إليه. اتيت لاطمئننه! في منزله الذي هاتفته عليه قبل المجئ وتعجب كيف عرفته وأخبرني عن عنوانه الذي كنت أعرفه كذلك. قابلته في منزله. كنت ألبس الثياب المدنية أما هو فكان يلبس بدلة كاملة! قلت له:

-تلبس بدلة في المنزل. إلا يكفيك الاستوديو!

يضحك ويقول:

-إنها من أجلك فقط وعمرها الافتراضي سينتهي بعد انصرافك

-طالما تساءلت عن هذا الأمر. كيف تظهر في كل حلقة ببدة

مختلفة؟

-صدقني هذه هي أبسط الأشياء وأقلها تكلفة. هناك شركة

رعاية متكفلة بالأمر. أكاد أجزم أن هناك مصنع بدل قائم لي

وحي.

-وما بالك بالإعلاميين الآخرين كذلك ربما هي مدينة كاملة

لبدل الإعلاميين.

ضحك وقال:

-وماذا عنهم؟ هل ذهبت إليهم أيضا، أو ستذهب؟!

اقتربت منه قليلا على كنية الصالون الأنيق.

-بالطبع لا. أنت فقط. تعرف أن جميعهم اوراق محترقة

-أكاد أحترق أنا الآخر.

-لذلك جئت إليك.

كنت قد ابلغته بالطبع من أنا وإلا لما قبل تلك المقابلة في

عنوانه الذي يقول إنه لا يعرفه أحد وإلا لتجمهرت البلد كلها أمام

بابه.

-رأينا الحلقة الشهيرة ونحييك عليها.

خفض رأسه قليلا وقال:

-أنتم الوحيدون إذن.

ثم استدرك

-من الجهات الرسمية بالطبع.

قلت مسرعا

-لكننا لسنا أية جهة رسمية. انت تعرف من نحن. نحن الأهم

-بالطبع.
-سنوفر لك الحماية الكاملة.

عقد حاجبيه
-حماية من أجل ماذا؟
ابتسمت

-ماذا يسمونها. أليست الرسالة الإعلامية. ستقدمها بكامل
حريتك. ستنقل آراء الناس كما هي، والوقائع كما هي، بل وستقول
رأيك الساخر كما تحب وتنقد من تحب وتأتي بمن تحب لينقد ما
يحب.

اعتدل في جلسته وقد انفرجت أساريره مذهولا لا يعرف بما
يرد.

لذا قمت وأنا أقول:

-سأتركك تفكر وإن كنت لا أرى أي شيء يستدعي الأمر.
فقط تذكر أنك ستظل مدينا لنا بتلك الخدمات وستردها إلينا عاجلا
أو آجلا!

-2-

م

لم أعد أطيق البقاء في المنزل. أمي الباكية دوماً. أخوتي الصغار الذين لا يفهمون وأكبرهم الذي صار مراهقاً ولا يكف عن الجدال. عمي الذي صحا ضميره فجأة صار يأتي بكثرة ويطمئن على الست الوالدة. كانت المرة الأخيرة مثيرة فعلاً. فحين دلفت إلى المنزل سمعت ضحكة أمي. منذ متى لم اسمعها تضحك ولماذا الآن. رأيت عمي أولاً يجلس في الصلاة ولا يكف عن التدخين سلمت عليه وتلمست آثار أمي لأجدها في المطبخ. لكنها لم تكن وحدها. كانت معها مرفت. تبا. مرفت ابنة عمي التي لا تكف عن الضحك والقاء الدعابات. لم أرها منذ مات أبي ربما. ولم يأت عمي بها منذ ذلك الحين. لا أنكر أنها تغيرت كثيراً، خاصة بالحجاب الذي ارتدته مؤخراً أو حين ارتادت الجامعة لكنه كذلك كان من نوعية الحجاب الذي أمقته لتطول سلسلة مقتي لها. كان حجاباً يلف الرأس كما أتفق بل أن أجزاء من الرقبة تظهر من تحته بلوزة حتى الخصر جيبية ضيقة حتى الكعب. حذاء على الموضة تخرج منه اصابع قدميها ملونة الأظافر. شعرت بقشعريرة وسلمت مسرعاً متجاهلاً أسئلتها العريضة عن أحوالي واتجهت لغرفتي. ولم أخرج منها إلا على الغداء.

-مرفت ساعدتني كثيراً يا أبو مرفت. لم أكن أعرف مهارتها.

-عندنا تقوم بكل شيء وتريح أمها تماماً.

ما هذا الفيلم الذي يدور. أعرف أن مرفت تميل إليّ منذ الصغر. لكنني لم أعرف قط ميل أبيها أو أمي. ماذا يحدث؟
-ألن نفرح بزفافك يا مرفت؟
تبدي الخجل ويتطوع أبوها بالرد
-في انتظار ابن الحلال
ضحكة من أخي المراهق تبتعتها غصة في حلقي جعلتني أكج.
وقبل أن أطلب الماء كانت مرفت تحمله لي. شربته مسرعا وقمت
أغسل يديّ وأكمل عصريتي على السرير أمام الإنترنت. لكن
أمي لم تتركني. إذا بها تفتح الباب وتظاهر بأنها تسألني عما إذا
كنت أريد بعض الشاي.
-لا

قلتها متشاغلا فاقتربت تقول
-ما هذا الذي تفعل تترك عمك وابنته وحدهما
-أمي ماذا هناك؟
التفت إليها متسائلا بجدية تعرفها فقالت:
- لا نقدر عليك. قلنا بنت عمك لها عليك دلال
ضحكت حتى الثمالة. بينما هي تنظر لي متعجبة
-أمي أتخدعينني أنا؟
جلست جوارى على السرير ولامست باصابعها شعر رأسي.
-يابني اسمع كلامي. عمك بحث لك عن عمل في أحد شركات
الحكومة وابنته زينة البنات وتريدك. بل هي من ضغطت على
أبيها كي يعتني بك وبي.
سكتت مفكرا لا أعرف ماذا أقول.

-يابني اترك ما في رأسك. ده بكره يوم التقديم.
ماذا أقول لتلك الست. ماذا افعل بمرتب الحكومة والأهم ماذا
سيفعل لها ولاخوتي. وفي مقابل ذلك أتزوج تلك الحمقاء. هيهات

-يابني مازلنا في حاجة اليك. وأنا مريضة كما تعلم.
لم أتحمل الضغط أكثر. قمت مسرعا أرتمي حذائي وعندما
قالت

-أين تذهب؟

كنت أفتح باب الشقة قائلا لعمي وابنته

-سلامة عليكم.

تمشيت حتى الميدان اتلفت حولي غير مكترث. وحين مررت
على المقهى وجدت عبد الله. في يده شيشة يحتسي معها الشاي.
اقتربت منه ولكمته دون أن يراني فانزعج ولما عرفني زاد
انزعاجه.

-ألن تترك عادات الأطفال تلك؟

وكأنه نسي أنه هو من يفعلها كل مرة. جلست بجانبه ملاحظا
همه

-مالك يا جميل.

نظر لي

-مازلت في غيك؟

-حتى أنت

-أمك مازالت غاضبة

-انا هارب منها كالعادة.

-اسمع كلامها.

الأحمق هل نسي -كما ينسى كل شيء- إنه هو من عرفني
على قريبه العميد الذي هو مفتاح الفكرة.

قررت تغيير الموضوع فقصت عليه ما كان من أمي.
ضحك أخيرا للمرة الأولى.

-ألا تريد أن تتزوج؟

قالها بجدية. لقد صار أحمق من اللازم. لكنني فكرت في جدية
كذلك.

-هل تعرف أنني حتى الآن أريد أن اتزوجها.
-من؟

-لا تكن أحمق. أنت تعرف من.
سكت وسكت مفكرا ثم اردفت:

-لكن، لا لا أريد تزوجها أريد فقط خطبتها ثم تركها كما
تركتني.

ظل صامتا فاردفت:

- أتعرف حين التخرج من كلية الضباط قد يقبل بي أبوها. هو
يحب الضباط. تعرف لو حصل يا عبد الله ستكون انت السبب في
كل هذا. انت مالك؟ هل موضوع العمل مازال يؤرقك؟ عندي
لك...

-ندى تحبك يا محمود!
نطق أخيرا، وليته ما فعل!

ر

يوم مشهود في العاصمة. ربما لو حلقت طائرة بعد الفجر
لرأت الوضع التالي. نشاط غير عادي في مثل هذا التوقيت.
سيارات أجرة جماعية في مناطق عدة تنتظر جاهزة وصبيها
ينادي بصوت لا يصل بالطبع للطائرة المتخيلة. ومن كل حذب
وصوب، من كل بيت تقريبا في اي حي جديد أو قديم، عريق أو

عشوائي يخرج شاب بمعنى كلمة شاب، باكتماله العضلي والذهني، يتقابلون سويا ومنهم من يبقى وحيدا، يركبون المواصلات السابقة أو غيرها يتجمعون في نقطة واحدة حتى أن ثمة زحام ينشأ في ذلك الشارع الذي ما ازدحم قط. شارع منطقة التجنيد. هنالك يفرض الامن كردونا أمن الجيش لا أمن الشوارع. تفتش ملابس الداخلين تمهيدا أن تفتش اعضاءهم في الكشف الطبي. كنت أنا إذن أحد هؤلاء. في يوم تقديمهم لأوراق تجنيدهم. وكنت قبلها سهرانا منذ أمس عكس عادتني. في اضاءة الغرفة القديمة الخافتة. السكون التام يمنحني راحة لا مثيل لها حتى تمنيت أن أظل هكذا للأبد. أصل إلى مرحلة من الجمود. لا هم حينئذ، لكن كذلك لا فرح أو شغف. عندما فكرت قليلا وجدت أن هذا سر الإنسان الصغير. السر الذي ميزه به الله عن الجميع. الشعور النفسي وليس المادي. هكذا قررت أن أترك الهم جانبا والقى الأمل وجها لوجه. أمني الذي تذبذب على مدى سنوات. لكنني كنت كالمربوط بـ"استك" كلما ذهبت أبعد عدت أسرع. لكنني وجدت أن هذا تشبيه غير دقيق. فانا لست مجبرا. ولا زال بإمكانني فك هذا الاستك عني. لكنني لا أستطيع. هل هو العهد والوفاء أم المغامرة والافتحام. منذ ليلة النتيجة وانا لا أفارق السهر. أدمنته دون شراب أو دخان. أدمنت إمعان النظر في الظلام وما ينتج عنه من هالات بيضاء متخيلة. أدمنت التفكير ومحاولات الهروب من التفكير. بل ربما تفكيري ينحصر في هذا الأمر. أفكر إلا أفكر. مشكلتي كانت أنني غير مجبر على ذلك. أفقد التباكي على القدر المحتوم والمصير الذي لا بد منه. أفقد الرثاء والغربة. لكن ما افتقدته حقا كان طموحي. تدريجيا خرج ولم يعد. لا زلت أذكر يومي الأول هنا. عيناى الوثابتان وسيارة أبي القديمة وأبي نفسه الوسيم الأنيق. لا زلت أذكر الجامعة ومحاولاتي البائسة لاكتساب

اصدقاء وما تلاها بعد ذلك من تخلص من بعضهم. لكن ماذا قبل وماذا بعد؟ هل أنسى أنه من قبل كان هو الدافع وأنسى أن ما بعد كان هو المحفز؟ فهل أنسى لهما فضلها وأنكر جميلهما. ذكرياتي مع الشيخ عمرو لا تنتهي. بعيدا عن الذكرى الباردة الكئيبة الأخيرة فهي كالشجرة المثمرة التي داهمها الخريف. أذكر أوراقها وثمارها. كنت مراقبا وقتها لا أكف عن اكتشاف نفسي وغيري عن طريق إيذاء نفسي وغيري. في المدرسة التي ما زادتنا إلا فجورا لم أتعلم شيئا لكن في مدرسة الشيخ عمرو الشاب صغير السن تعلمت أن أحاول أن أكونه. شاب اكتشف العالم بجانبه وبحره الهائج بشاطئيه. الطموح يملأه والعلم يفيض منه قلت له

- علمني.
- تعلم انت.
- كن دليلي.
- اتخذ من الله دليلك.
- ومن أنا ومن هو.
- ومن أنا كي تطلب هدايتي.
- كيف تعلمت.
- فهمت.
- وماذا فهمت؟
- حقيقة الدنيا.
- وما حقيقتها؟
- إختبار متعدد الأسئلة.
- ولم أسأله بعد ذلك فقد صرت أجيب بنفسي على أسئلة الإختبار. وحين شكوت مرة من عدم جدوى الإختبار.
- الدنيا ليس لها قيمة

-اذن لماذا كان الإختبار
-الإختبار لك ليس للدنيا. ستكون نتيجته درجاتك انت وليس
الدنيا. أنت أعز من خلق الله ولكن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة!
-ولكن الناجحين في الإمتحان هم اللاهون العابثون.
-كيف؟
-كيف!

كنت اتساءل دائما عن أي عالم يعيش فيه الحالمون والفلاسفة
ورجال الدين. العالم يموج في بعض وهم في نبأهم يتساءلون.
لكني حسبت الشيخ عمرو ليس منهم.
-لا تحسبني غافلا عن أن العالم يحكمه الحمقى والفسقة
الفجرة. لكن النفس هي بداية تغيير الكون. يجب أولا أن تستعد
النفس.

-تستعد لماذا؟

-لبذل النفس!

كان كلاما كبيرا على مراهق صغير وعاه وتحمس ولما كبر
لم يعد يعه ولم يعد يتحمس. جاءت الفرصة المنتظرة. فانتهازها
لكنه ظل غير متحمس. في لقائي الأخير مع الشيخ عمرو ظننت
أنه كذلك. خاصة حين رأيتة ثانية للوهلة الأولى. بدا أكبر من
سنه. بدا أسمن قليلا. ولكني حين لمحت عينيه أدركت انه ظل
بنفس الحماس. كيف. المعادلة صعبة. انت تحتاج الحماس لتغيير
الحياة ولكن الحياة بطبيعتها تفقدك الحماس. حلقة مفرغة. لكني
تيقنت حينها أن تغيير العالم يكون بامثال ذوي العينين المتقدتين
هاتين. وقررت أني لو لن افعل فلأشارك. العجيب أن في خضم
حيرتي بين مستقبلي المزعوم ومشاركتي في تغيير العالم لم اتذكر
سوى مؤمن. نعم، خاصة في لقائنا الأخير قبل الإمتحان الاخير.
تذكرت مقولته "وما جدوى العلم إذا تحكم به الجهل". وما جدوى

الحياة بدون حلم. تذكرتها وقتها وتذكرتها الآن حين احسست بابي ساهرا هو الآخر في غرفته. أبي مثال لعلم تحكم به الجهل حتى صارت حياته بدون حلم. طرده الأوباش لخلافه السياسي. كفاءته وخبرته لم يغنيا عنه شيئا. طموحه دفن بلا عودة. وحينما رأيته ظل قادما حيث أجلس عدلت من جلستي وكدت أن أقول لن أصير مثلك يا أبي لا تخف!

-أراك قلقا

-وانت أيضا

جلس بجانبني. لشد ما تغير أبي. لم أذكر قط أنني تشاجرت معه حتى في أعتى فترات مرافقتي، وحتى في أجن لحظات شبابي. حتى حين التحقت لشهر أو اثنين بالتنظيم الاشتراكي. عرفت انه عرف. ولم يفاتحني حتى في الأمر. كان ذلك تفهما منه وقتها أما الآن فهو ضعف وعدم مبالاة.

-غدا سيكون يوما عصيبا عليك

هو من قالها ثم أردف موضحا

-ما أصعب التغيير، وما أقساه لو كان إلى الأسوأ.

حكى لي أبي من قبل عن ذكريات جيشه التي لم تكن جميلة أبدا لكنني أفهمته أن الأمر مختلف هذه المرة. فانا ضمن البرنامج الجديد المعلن عنه. لكنني أعلم أنه لا يذكر ولا يهتم.

-لماذا؟

تصنعت عدم الفهم.

-لماذا دخلت ضمن البرنامج الجديد وكان بإمكانك العكس

بورقة تعيينك الجامعية؟

لم أرد. لم ينتظر الرد. فقط قال:

-ستوحشني!

وقام. لم يمثل دورا كلاسيكيا ويحتضنني أو يقبلني أو حتى
يشد على يديّ. فقط قام وقمت أنا أيضا حاملا اوراقى متجها إلى
شارع منطقة التجنيد!

م

وكان عبد الله ما قال لي ما قال إلا بالأمس. كان هذا منذ شهر
أو يزيد. لكنني استحضره بقوة في تلك الليلة المائلة للبرودة؛ ليلة
ذهابي في الغد إلى كلية الضباط وتسليم نفسي هناك يفعلون بها
ما يشاءون. غريب هذا الأمر. لطالما ظننت أن أمي هي الدافع
الوحيد لما فعلت. وذكرها من ستهون عليّ القادم من أيام. لكن
الآن ورغم أنها مازلت مستيقظة تبكي وقد عاودها الحزن بعدما
كان غادرها مع الأمل في اثنائي عن أمري، لكنه الآن حزن
مستحق لا ألومها عليه. فلو لم نبك عند الفراق فمتى نفعل؟ لكن
الغريب أنني لم أعد أفكر في هذا الأمر قط. أمي صارت شبيهة
بصورة الغلاف على الفيس بوك، أما البروفایل فملأته ندى تماما.
بالمناسبة لقد أضفتها بالفعل على الفيس بوك. قبلت اضافتي على
الفور لكننا لم نتكلم. انتظرتها قليلا على وعد لو لم تفعل لافعلن.
لكنها لم تفعل ولم افعل. لعلها قطعت نفس الوعد واخففته بعد أن
انتظرت ذات الإنتظار. لا بأس يكفيني جمال الفكرة بعيدا عن
التطبيق الذي ربما صار هزيلا. الأمر أشبه بالمقارنة بين الواقع
والكرتون. بين الخيال السحري والالوان الزاهية والطيران على
بساط الريح والسكنى في قصر الأمير وبين الواقع المليء

بالتعقيدات والجو المليء بالأتربة والحركة وسط الزحام والضوضاء والسكن بين حوائط اسمنتية ضيقة. كما أن شعوري كان معقدا حقا. مازلت لم أسامح لكني مازلت لم أنس. مازلت أكره لكني ما زلت أحب. عجبي يزداد حين أرى أن ذكرياتي الجميلة تمت تقريبا في نفس الفترة لكن في اتجاهات متعاكسة. مسجد الشريف وشيخه الشريف. زقاق أبو الوقا وسكناه الهوى. الهوى الذي نهى عنه الله وحذر منه الشيخ. ربما كان لهذا جميلا. حسنا لقد ذهب كل شيء أدراج الرياح. لكن..

-نم يابني. ستستيقظ باكرا

لكن أُمي لم تذهب أدراج الرياح ولن اتركها. اقتربت منها قبلت جبينها.

-إذن فلتنامي أنتِ باكرا

-لن أنام حتى أراك ثانية

-إنه مجرد أسبوع وستزوريني..

-ومنذ متى وأنا أظل أسبوعا دون أراك

-ابنك كبر يا حاجة. دائما ما تقولها

-لا تقل حاجة. لست كبيرة ما يكفي ولم أحج اصلا

-ستحجين. بعد أن تشفين

-ابتسمت ابتسامة اليأس وقالت

-الشفأ بيد الله. هيا تصبح على خير.

-وأنت كل الخير يا أُمي.

وقبل أن تتركني بقبلتها المعتادة سألتني

-متى تصحو

ابتسمت وقلت

-لا اظن أن النوم سيزورني الليلة!

2040

شمس الخريف الخجولة أحيانا الجريئة أحيانا أخرى أطلت على الصحن المكشوف للفيلا مظهرة تفاصيله وجمال ألوانه والتي لا يمكن لأحد تخيلها إذا نظر فقط إلى السور العتيق المتآكل طلاؤه المحيط بما علاه شأنا ومظهرا. ولطالما عرض اللواء على زوجته تجديد السور لكنها كانت ترفض باصرار الوثائق في معتقد أن السور يحميهم ليس من النظر والتلصص والأتربة وبلى من العين والحسد كذلك. لكنها مع ذلك لم ترفض قط تجديد البوابة الفخمة التي لائمت المكان شكلا وموضوعا. فالبوابة الضخمة طولا وعرضا سوداء يداخلها اللون الذهبي عليها زخارف ما بين الاشكال الهندسية والرموز العسكرية والخطوط العربية. وهي بمجرد أن تفتح اوتوماتيكيا يظهر خلفها طريق عرضه كعرضها تماما ممهد بالاسفلت الروسي الأسود القاتم كلونها تماما وربما صلح هذا الطريق أن يزدوج كطرق المدينة القريبة وأن تفصل في منتصفه الأشجار سريعة النمو التي دخلت البلاد مؤخرا كجزء من انفتاحها على التكنولوجيا خاصة في موضوع الزراعة. لكن من قال أن تلك الأشجار لم تدخل من قبل؟ ومن قال أنه ليس هناك من كبار البلد لم يستخدمها حتى قبل أن توافق عليها الجهات المسؤولة؟ ففي تلك الفيلا نفسها وعلى حافتي الطريق نفسه امتدت أشجار الزينة تتوسطها أشجار الفاكهة المعدلتين جينيا إلى اقصى الحدود. تكاد الزهور الملونة لا تنقطع حتى حين تقطفها جين وصويحاتها. أما الثمار فبالمثل. بمجرد أن تقع أرضا أو تقطع على يد أسر الطائش كما يلقيه أبوه ومعه اصدقاءه كذلك تخرج الثمار الجديدة خلال أسبوع. وكان أكثر من أعجب بهذا الأمر هي السيدة صاحبة الدار أم الابناء وزوجة اللواء الذي طالما سألته عن سر تأخر الحكومة في قبول واستيراد تلكم البذور والأشجار

وكيف لها أن تحل ازمات الغذاء بمنتهى البساطة؟ كان يقول لها نفس الكلام الذي يردده التلفزيون والهيلوماجيون عن التنازلات المطلوبة في المقابل وإن البلد لن تصبح تحت رحمة أحد ولن تسمح لأحد باستغلالها واحتكار أقواتها. ففي الحقيقة أن تلك البذور هي انتاج بلادها فقط. ولو اعتمدنا عليها لصرنا عبيد لمنتجها. للوهلة الأولى الكلام منطقته لا شك فيها. لكنه كان يعرف أكثر من غيره أن الحقيقة مختلفة. فبالبلاد منتجة البذور لا تحتكرها لسبب بسيط هو تضارب مصالحها وهذا اضافة إلى كون تلكم البلاد حليف في الأصل وبلاده منبطحة لهم بالفعل. لكن التفسير مختلف ولم يبح به أحد لكنه معروف. تغيير طريقة الحياة تعني تغيير طريقة الحكم. وتغيير الشعب يعني تغيير السلطة. نظرية المستبد المستنير تثبت خطأها للمرة الألف. المستبد لا يكون مستنيرا أبدا. وإلا لضاعت السلطة وهي غاية استبداده. توافر السلع والأقوات الناتج عن توافر الزراعات والمحاصيل معناه أنه همّ إنزاح عن كاهل الناس. سيبحثون عما بعده. ربما صحة أو تعليم أو حكم! هكذا كان يفكر الجنرال الحاكم ومجلس الجنرالات المصغر والذي هو عضو زائد فيه ليس إلا. فعدم عسكريته الأصلية تجعله هجينا ملونا. لكن أليس الهجين ينتج أفضل السلالات أحيانا. ربما هذا زمنه مثلما صار زمن الأشجار سريعة النمو. فالحكومة قبلت أخيرا دخول البذور المنتجة لهذا النوع. ضمن حزمة إصلاحات واسعة اعلنتها توازيا مع خطة الرئيس للإصلاح التي تأخرت عشرين عاما فيما يبدو رغم وعوده السابقة. استخدمتها أولا في الشوارع لتجميل صورتها المخزية. على أن تضع وزارة الزراعة الخطة لاستخدامها في انتاج المحاصيل. وكان خبر بدء المرحلة الأولى طازجا في الجريدة الورقية التي في يد اللواء الذي جلس في الحديقة الغناء

بين الطريق الاسفلتي الرشيق المتموج وبين أبواب فيلته ثنائية الطوابق. كان إذن من القلائل المتابعين للجريدة الورقية. يجلس بملابسه المدنية التي يفضلها عن العسكرية. يجلس بوجهه المتغضن المحتفظ بآثار وسامة الماضي وأمامه كوب عصير من المانجو يذكره بأيام خلت. يجلس ويقرأ الجريدة تحت المظلة في يوم العطلة الرسمية احتفالاً بتأسيس الجمهورية الثانية منذ عشرين عاماً! يذكر أنه ساهم في ذلك اليوم أكثر مما ساهم رجال غيره. ويذكر أن ذلك اليوم ساهم في صناعته هو أكثر من أيام غيره. بل ربما هو مؤسسه الأوحد. كان العالم كله في واد وهو في آخر. كان بالنسبة له بداية طريقه الحقيقي بعدما كوفئ بنوط الشجاعة من الدرجة الأولى الذي جعله بالفعل يلتحق بطبقة الضباط الأولى. طبقة أهل الثقة سريعة الترقية وصاحبة المناصب. تحدّثه الجريدة عن أحداث ذلك اليوم ويحدث هو نفسه عن إحساس ذلك اليوم. هل قتل؟ ولماذا قتل؟ في الجريدة يقولون في سبيل الوطن ولأجل الجمهورية الثانية. تبا وما فرق الجمهورية الثانية عن الأولى عن اللاجمهورية من الأساس؟ بالطبع هناك سبب آخر.

-بالتأكيد هناك سبب آخر لقراءة الجريدة خلاف الإمساك بها والتفكير في عالم آخر.

قالتها الزوجة المتصابية. سن اليأس لم يزورها بعد وكأنها ستظل شابة أبداً. عمليات التجميل الأخيرة جعلتها كنجوم الفن. لا تشيخ. لا تخفت نضارتها. حتى إنه ما زال يشتهيها أحياناً ويحب رؤياها مثيرة كما أحب دوماً منذ مراهقته. شعور سيئ يعتريه أحياناً بسبب ملل بفعل طول الزمن. لكن شعوره السيئ يعوضه شعوره بالانتصار حين فاز بها وكان مهرها نوط الشجاعة نفسه. إذن فهي أحد ثمار ذلك اليوم.

-هل تركت الجريدة لتسرح ثانية؟

كانت على طبيعتها المتنمرة التي تستثار حين تجد من يهتم بغيرها. يفكر في غير جمالها. يتأمل في غير ملامحها. كان يعرف من هي على النقيض تماما. وأحبها أكثر وأكثر. أمه المتوفاة قبل زواجه. التواضع والطيبة والخفوت والخضوع.

-متى سترد علي؟

انتبه وقد أدرك انها على شفير الغضب. الاربعينية التي مازالت تمارس الرياضة والحمية الغذائية وتضع المكياج وتجلس أمامه بفستان قصير منحسر عن ركبتيها الجميلتين.. قال

- أفكر بك يا ملاكي

- أعرف فيما تفكر. الذكرى السنوية لقيام جمهوريتك.

-وأنتِ رئيس تلك الجمهورية

-ارجو أن تصير أنت، ذات يوم، رئيس الجمهورية!

كان يعرف ذلك الأمل الغريب الذي يراودها. أن تصير زوجة رئيس جمهورية. الحلم لم يراوده وقتها لأنه يدرك ما خلفه من قيام جمهورية أخرى له. قد تكون أمبراطورية أو نهاية لجمهوريةته وجمهورية بلاده التي يظن أنه حان أوان أفولها. ولكن للأمر اغراءه. فالمجد الشخصي لا يزهد فيه أحد. ورغم أنه للوهلة الأولى يبدو التفكير في الأمر مجرد عبث، إلا أن الطريق مفتوح وأكثر مما ينبغي. خاصة مع أمر تلك الاصلاحات.

-هاي بابي.

جاءت من خلفه الجميلة فينوس. ابنته التي مازال يحب الحياة بسببها. جاءت بملابس السباحة تطبع على جبينه قبة وعلى جبين أمها معلنة استمتاعها بتلك الإجازة وأنها ستقضيها في حوض السباحة الكبير. نظر لها ومن خلفها المياه الزرقاء التي قفزت فيها. لا يدري أهي بهذا الجمال بالفعل أم أنه منحاز لها. لكنها بلا

شك من ملكات الجمال. فكر في أن يشاركها المياه كما كان يفعل
في الايام الخالية. لعله يريح ذهنه المرهق. لكنه لم يكن يعلم بأمر
ذلك الإتصال القادم الذي سيزيده رهقا!

2020

-1-

الأتربة التي علت أثاث غرفته المتواضعة أشعرته بالقدم والعراقة وكأنه في مقبرة فرعونية أو في مجاهل التاريخ. الخمسة الأشهر الماضية مضت كعمر كامل له طفولة وشباب وكهولة. في البدء أحس إحساس الوليد الذي لم يعرفه من قبل. مكان غريب أناس غرباء يتحدثون ما لا يفهم ولا يفهمون. فما سر بكاء الرضيع حين نزوله إلى دنيا الناس؟ لكنه ما لبث أن كبر قليلا ليفهم كثيرا وحينها رفض وحاول تغيير الكون واللغة والناس والأوامر والأحكام لكن الأمر باء بالفشل كما يبوء مع أي مراهق حديث الأسنان. لكن إذا كانت الحياة لن تتغير فلماذا لا يتغير هو. سيطور من نفسه وسيكون "قد المسؤولية" وسيرضى عنه الناس وربما زوجته بناتهم. هكذا كان الشاب المتحمس الذي حمده كل القادة وغبطه كل الزملاء. لكن الأمور سرعان ما تهدأ والنهر يقل فيضانه ويفتر تياره، وهكذا صارت الرتابة تتسرب إلى كل أفعاله وجدول أعماله اليومي المتكرر. لكن خبرته صارت لا تضاهي وصارت مرجعا لمن لازلوا في مرحلة الشباب. وعندما توقف النهر تماما عرف أنه قد شاخ وأنه على مشارف النهاية ولم تنقذه حينئذ إلا تلك الإجازة التي ذكرته بان له حياة أخرى لم تنته بعد. فجاء غير مصدق مستقلا المواصلات المدنية وبالملابس المدنية ليجد أن لا أحد يناديه كحضرة الضابط فقط كدكتور رامي. هنا انهارت دفاعاته العسكرية الحديثة وظهرت دموعه المدنية وهو يسلم على أمه العزيزة ومنتظرا لأبيه العزيز.

لم يكن يعلم أن العسكرية سهلة الإكتساب إلى هذه الدرجة وكذلك سهولة الفقدان. وحين فتح الشباك لتدخل شمس عزيزة في الشتاء وحين وقف ينظر إلى تلك النبتة في البلكونة المقابلة والتي لم تنم كثيرا وربما كانت في انتظار الربيع القريب وحين تذكر نفس وقفته تلك مفكرا في كل شيء، بدءا من مغازلة بنت الجيران وحتى التفكير في دقائق المذاكرة أو التفكير في عواقب النتيجة، حين تذكر كل ذلك تنهد وقد علم أنه قد غادر صرامة العسكرية إلى حيرة المدنية. إقترب أحدهم من الخلف وحين التفت وجد أخته الصغيرة الجميلة التي لم تعد صغيرة وصارت أكثر جمالا. ابتسم لها فاقتربت لتقف معه في الشباك المترب.

-ألا تخشى على ملابسك من هذا التراب أم لم يعد لك عزيز

غير البدلة الميري؟

نظر لها متأملا

-لم يعد لي عزيز غيركم. ثم حتى البدلة الميري أنتم من تغسلونها أم نسييت؟

كانت هي وأمه من يأتیان لزيارته دوما، وبين المرة والأخرى لم يخل الأمر من مهام سريعة مثل الغسيل وهذا بالطبع خلافا لمهام أكل أمه اللذيذ.

-أين أبي؟

سكتت مطرقة برأسها

-ألا تعلم أين أبوك؟

-على المقهى

-لأبد!

كان أبوه قد غير عادته من الجلوس الدائم في المنزل إلى قسمة الوقت بين المنزل والمقهى.

-أريد أن نترك تلك البلاد.

تقولها بكسر شفيق.

-لماذا؟

-أخشى أن نصير مثل أبي وأن يفعل بنا الزمن ما فعل به في هذا المكان.

كان يعلم أنه قد يغادر سريعا. أما هي فلم يفكر فيها إلا كأمية في قصرها. لكن هذه الأميرة، فاين القصر؟ صوت فتح الباب وغلقه وبذلك الطريقة أوحى أن أباه قد جاء. سريعا خرج ليجده وكأنه لم يجده. صار رجلا آخر؛ رجلا نحيفا منكوش الشعر. الهالة تحت عينيه تكاد تصل لخديه وحين احتضنه عرف أنه بالفعل أكمل التحول إلى رجل مسكون باشباح وإحباط. جلسا.

-هل انتهت مدة دراستك؟

-يعتبر، فقد أطلقنا النار للمرة الأخيرة بالأمس فقط بقي الاستعداد للعرض أمام الرئيس بعد أقل من شهر. كانت تلك الإجازة منحة لم يعلموا بشأنها. فمن ضمن النظام المتغير هذا العام لكلية الضباط المدنيين كان انعدام الاجازات مع زيادة الزيارات. لكن لرفع الروح المعنوية قبل العرض أمر لهم اللواء القائد بتلك الاجازة القصيرة.

-متى تعود؟

-بعد يومين.

لا يبدو عليه أي استغراب أو اشتياق أو انتظار.

-هل تعلمت شيئا هناك؟

عقد حاجبيه شعورا بالحيرة. من الصعب الإمام بهذا السؤال بالذات. لكنه يذكر أنه تعلم الكثير لكنه لن يبوح إلا بما يفيد. -هذه الدفعة أول دفعة يطبق عليها القانون الجديد. هناك تعليم صارم للعسكرية وفي نفس الوقت احترام شديد للأدمية. -ضربتم نار؟

يبدو أنه قد نسي ما قال ابنه.
-نعم كثيرا. فهذا من ضمن ما تغير. لقد صرنا جميعا نتقن
الرماية.

هز رأسه بلا مبالاة ومد يده يشغل التلفاز. شجن اجتاحه وقد
عرف معنى الحديث قهر الرجال. هل هذا الغصن البالي هو أبوه؟
هل يداه المتغضنة تلك هي يد المهندس البارع منذ عقد واحد فقط
من الزمان؟ ولم يخرج من شجنه إلا استقرار أبيه على قناة
ليتابعها. كانت قناة "الحرية" والغريب أنها بالفعل القناة الوحيدة
المسموح لها بالحرية. وكان مذيعها الأشهر خليل هو من يتحدث
في حلقة معادة كما ظن. وقبل أن يخبر أباه أن الحلقة معادة رأى
أمه من خلف ستارة المطبخ تسأله عن الغداء وحين لاحظت
الحلقة قالت بدورها.

-نفس الحلقة تراها اذاعة واعادة!
نظرة أمه دلت أن هذا ديدنه وحين تابع الحلقة عرف لم كان
ذلك برنامج أبيه المفضل.

وكان الأمر، استاد كبير يجلس فيه بالمقصورة لتمكنه من
رؤية بانورامية إلى اليمين والشمال والمركز؛ استاد هو ساحة
كلية الضباط الاحتياط في يوم تخرجها. يجلس على كرسي جلدي
معتبر لا يميزه شيء عما حوله إلا اختلاف الرتب الجالسة عليه.
والرتب لا تميزها بدلات متشابهة إلا من كنه النجوم والنسور
على الاكتاف. ورتبته كمقدم رتبة متوسطة اجلسته متأخرا نوعا
ما خلف صفوف اللواءات والعمداء الذين كانوا كذلك لا يزالون
خلف الصف الاول. فالصف الأول حجز للبروتوكول، الوزراء

والشخصيات العامة فهي أولى بالتصوير من رتب متشابهة. وزراء لا يعرفون ما دخلهم بالأمر، وزير الاسكان مثلا أول من حضر لابد أنه ترك قراءة دراسة مشروعية كبرى لاجل حفل عسكري. ربما لو سأله بعد الحفل عن كنه المشروع ومستقبله المرسوم من الآن وهل يستحق الشراء، لما استطاع الإجابة. أما وزير الصحة فهو أول الوزراء غير الأطباء. نعم لقد فصلته نقابته وتيرأت منه. لم يعد طبيبا ربما لذلك ظل وزيرا. لكنه يظل يكره محادثته على كل حال، لسبب متناقض مع سببه الأول. أما الأول فهو حذقة الأطباء والثاني تهافت الوزير. مكانان فارغان تليهما وزيرة لا يذكر اسمها ولا عملها. هي صورة كما هي الآن. وها قد اتى رئيس الوزراء. أشيب كالعادة وغير مبال وكأن تلك الصفات وردت في كتالوج رئيس الوزراء على مر الأزمان. هو المسئول الحق وغير المسئول الحق. فكيف لا يسأل وهو كبير المسئولين؟ وكيف يُسأل والأمر ليس أمره؟ خرج من تفكيره بضجة؛ ضجة معروف صاحبها. تطلعت اليه سائرا. السيد رئيس الأركان، رغم قصره له هيئته التي تمنع الرئيس نفسه أن يعزله حتى الآن وإن صار الأمر قريبا، والى أن يصير فهو الرجل الثاني. سلم عليه الجميع. وجلس ونظر. وعبس وبسر. بينما تطلع ينتظر متى يأتي الرئيس ورئيس المخابرات رئيسه المباشر. وهو المسئول المباشر عن تلك الدفعة الجديدة تماما من الضباط المدنيين الاحتياط. فقانونها الجديد ونظامها الأساسي تغير على يديه ويدي الكثيرين كذلك. لكن سرها الصغير ربما لا يعرفه الكثير. دائما كان مشفقا على ذلك الضابط المدني الاحتياطي ويغبطه في نفس الوقت. يشفق عليه فقد أكل طعاما حارا لا يحبه لكن يغبطه لأنه شرب الماء بعده مباشرة فشعر بلذته. وإن كان لا زال لا يعلم أيهما أفضل مَنْ أكل طعاما حارا يحبه، أم مَنْ لم

يأكله وشرب ماءً لم يشعر بقيمته، أم صاحبنا ذلك بين البينين؟ بالطبع الحرارة هي العسكرية والماء هو المدنية. حسنا كان هذا تفكيره فيما مضى أما الآن فتفكيره منصب على ما هو آت. وكان الآتي في تلك اللحظة هو الرئيس شخصيا بصحبته مدير الكلية واللواء عيسوي صاحب خطة الـ 150 يوم عسكرية. أو بمعنى أدق ناقل تلك الخطة التي رسمها هو كعادة إعماده الكامل على المقدم انور. كانت تلك الخطة الجديدة لإدارة التعليم في الكلية. ورغم قيمتها الشديدة والتي استطاع وضعها طبقا لأحدث خطط التعليم العسكري في العالم أجمع وبإمكانات قابلة للتنفيذ في بلاده، إلا أن قيمتها الحقيقية كانت الهاء الرئيس والوزير ليقللوا بها. ولولاها لما اهتم الرئيس وجاء بنفسه في هذا اليوم المجيد كما عزفت الموسيقى العسكرية احتفاءً بقدمه وكان الحفل ليس لتخريج هؤلاء الطلاب بل لقدوم حضرة فخامة الرئيس. أتى متبخترا عابسا غير عابئ على عكس بداياته التي اتفقت نشاطا وابتساما واهتماما. لكن لا مبالاة لا تحتاج إلى رؤيته لنعرف. فالرجل يتعرض لحملة نقد حقيقية ويقرر الصمت. كان سكوته بناءً على نظرية التنفيس -والتي اقنعه بها كذلك أجهزته المخبرانية- وأنه في سبيل تمرير ما يريد فليمرر للمعارضة ما تريد من نجاح كالكلاب، والأهم يمرر للشعب ما يقر به عينا وينام به قريبا. نظرية قديمة شبهها كثيرا بمصيدة التسلل في كرة القدم. ستمنع كثيرا من الأهداف لكنها ذات مرة ستسبب في هدف قاتل. حسنا، الرئيس لا يعلم ذلك ولا يريد، وقد دخل بالفعل سكة الذهاب بلا عودة التي دخلها سابقوه. ولا أحد يتعلم شيئا غير المشاهد والقارئ أما البطل فيقتحم دون معرفة النهاية. وحين جلس سيادته وسكنت الموسيقى العسكرية عرفوا أن الجزء الأكثر إملالا سيبدأ بكلمات متوالية لفائد الكلية والوزير والرئيس. كلمة يفترض

توجيهها إلى طلبة الكلية المتجمعين في أرض الطابور لكن لا أحد يسمعها. ربما ملوا كذلك ولكن يعوض ذلك رهبتهم ورغبتهم. أما الحضور فمن لهم؟ كانوا في الصفوف المتأخرة بعيدا عن مركز الاهتمام لذا سرت مهمات معتادة كتلك التي تكون دوما في الصفوف البعيدة، وكأنه فصل مدرسي من ذوي الثمانين طالبا. ومال عليه ضابط مجاور بدا أكبر سنا لكنه ذات الرتبة وقال همسا:

-منذ متى وكلية المدنيين يشهد تخريجها الرئيس؟

ابتسم وتظاهر للحظة بمتابعة كلمة قائد الكلية.

-منذ وضع خطة إعادة الثقة.

وهذا هو الاسم الإعلامي لسلسلة قرارات توسيع وتطوير القبول للضباط المدنيين لكنه نظر وكأنه لا يعرفها.

-ألا تتابع التلفزيون؟

-ومن يتابعه. ولا وقت انت تعلم لمشاهدة تفاهات.

ابتسم وهو أرى مزيد من الشواهد على الهدف المرتقب. أن يتمادى قليلا ويدلل بالمزيد على ما يريد.

-ولا تتابع حتى خان الخليل؟

قالها وغمز مبتسما فانفجرت أساريره للحظة ثم تحفظ.

-هذا الاستثناء الوحيد.

خليل الذي لم يسكت قط بعد أن أخذ منه شخصا الضوء الأخضر بناءً على تصريح الجيش. وبعد انتهاء الاستفتاء الذي لم يبق مسمارا في نعش الرئيس بل ربما خازوقا خاصة بما صاحبه من ملابسات وما تلاه من اشتباكات واعتقالات حتى في صفوف المعارضة المدججة وحتى انه ليذكر غضب شخص مثل جميل والذي لم يره يغضب قط. خرج من أفكاره على ذكر قائد الكلية

لخطة الـ 150 كإنجاز جديد عالمي في تعليم العسكرية لكنه وجد من بجانبه يهمس من جديد: ما خطة الـ 150 تلك؟
ابتسم قائلاً: خطة لتعليم العسكرية في مدة زمنية محددة ببرنامج صارم. جزء اساسي من خطة اعادة الثقة.
-من وضعها؟

لم يرد. وسكتوا يتابعون اوائل الكلية وهم يتقدمون يسلمون على الرئيس وجها لوجه. ترى، هل منهم من سيواجهه ثانية؟

خارج غرفة العمليات استرجع احداث حياته الأخيرة يوماً يوماً. ففي صباح ذلك اليوم المحدد مسبقاً إثر مقابلة أمه للعقيد طبيب هشام الذي قرر هذا الموعد السريع حتى لا تتفاقم الأمور المتفاقمة بالفعل. أمه التي كفت عن اعتبار نفسها سليمة وافقت على عمل العملية باستسلام واضح حين فاتحها في الأمر بعد تخرجه العسكري منذ شهر مضى. نظرت له نظرة ذات مغزى وقالت: عملت ما شئت يا محمود.

توتر قليلاً وفكر أن ينكر علاقة الأمر بدخوله للكلية وإن الأمر فرصة لا أكثر لكنه قرر الصمت. هل كانت تعلم منذ البداية؟ هل علمت الآن؟ لا يهم. وكأن الأمر لم يعد ما يهمه. ستجري أمه الجراحة، أما هو فماذا عنه؟ لازل يذكر تأنقه بالبدلة العسكرية والأهم ما تحتها من عضلات مفقولة كَوْنها لأول مرة خلال فترة الكلية وكجزء من خطة الـ 150. عرف حينئذ أنه صار فاتناً أكثر من اللازم. الوسامة الطبيعية والعضلات المفقولة وبدلة الضابط. لا شك أنه ما من فتاة لم يرق لها وما من رجل لم يغر منه. وكان ذلك يوم رجوعه الأول من الكلية. يذكر جيداً نظرات

الجميع واقوالهم. وعلى عكس المتوقع لم يذهب مباشرة للمنزل ليرى أمه واخوته الصغار. لكنه جلس مترويا على المقهى يسمع إشادة الجميع بمن فيهم من لم يعره انتباها قط ومن كان لا يطيقه البتة. وحتى أخوه المراهق لأول مرة لا يتسلل من الباب الخلفي حتى لا يراه بل أتى يسلم عليه ويحتضننه بشوق. أمر عجيب وساحر. لكنه لم يؤثر فيه ولا في عزمه ولا في رغبته الحقيقية بل ظل متوثب القلب والنظر والبدن في انتظار صلاة العصر لرغبة في نفسه. أما حينها فقد كان موعد عبد الله. حين هاتفه وجده هنا منذ اسبوع ويستعد للعودة إلى العمل الذي التحق به بعيدا. حسن حظ هو أم سوء حظ؟ منذ متى وعبد الله له ذلك الاصرار إلى درجة السفر والعمل في الصحراء؟ تعجب كثيرا. قال إنه قبل مغادرته سيمر عليّ أسفل منزله كما اعتاد في الصبا. لكنه أخبره ليتقابلا في المقهى. سينتظره إذن مع العصر وإن كان وقته قد ضاق إذ لا بد أن أخاه أخبر أمه بقدومه وهي متلهفة له الآن. لكنه ظهر بالفعل. قام اليه، وسلما وتعانقا ثم نظر اليه مذهولا.

-من أنت؟

ضحك محمود. وبدأ في سرد ما جرى وما حدث وسر تلك العضلات.

-وهل كل طلبة الكلية مثلك هكذا.

-التمرينات البدنية كانت قاسية على الجميع. لكن الاستفادة متفاوتة.

وتكلم عبد الله عن عمله فقال:

-اكتشفت ألا مكان لي هنا.

هل كان الأمر مجرد نزوة من نزوات طيشه أم أن عبد الله قد تغير كثيرا بالفعل؟ تعود أن يفهم صاحبه من عينيه والتي كانت

غير مستقرة ولها مائة تفسير. لكن محمود نفسه كان مشغول البال عن مثل تلك الأمور. وكان العصر المؤذن له يشعره بقرب مرامه. وما هي إلا ربع الساعة، شربا خلالها الشاي والبارد وتكلما عن هذا ذاك وراقبا الميدان الذي ازداد ازدحامه رغم عمليات تطويره المزعومة. حتى أتت اللحظة ولمحه خارجا. أشار لعبد الله.

- سأذهب الآن.

وقبل أن يفهم قام شاقا طريقه متتبعا خطواته. الحاج مصطفى. الذي كان ينتظره ليخرج كعادته لصلاة العصر. وحين التفت ابتسم. حسنا كانت تلك المرة الأولى التي يفعلها. ثم، توقفت ذاكرته أمام غرفة العمليات عند تلك اللحظة. هل مرت ساعة أم ساعتان؟ نظر فاذا به في الساعة الرابعة من التفكير المستمر. أحس لأول مرة بالقلق. قام واقفا ينظر من شباك غرفة العمليات. لكن كانت ثمة ستارة حاجزة. ترصد عل أحدا يدخل ويطمئنه لكن الجواب أتى من الداخل. طبيب التخدير ربما.

- ما الاخبار يا دكتور؟

-الحالة مستقرة

-والعملية.. نجحت؟

-الحالة مستقرة!

تركه وذهب وقد زاد حيرته فبقي واقفا في انتظار دكتور هشام!

-2-

ر

المعامل المركزية العسكرية! كنت مستسلما لقدري تماما ولم أكن لاتعجب أن يصيبني في نقطة ما على الحدود أو في سفينة ما في عرض البحار. لكني كنت اعلم أن مهمتي مركزية.. شديدة المركزية. لذا كان توزيع عملي بعد التخرج أن اكون ضابطا طبيا بتلك المعامل الضخمة. الشيخ عمرو الذي كان كالبدر يطل عليّ كل شهر صار كالقمر يطل عليّ يوميا ولا يختفي إلا بضع ليال متفرقة وليست متصلة. ربما كان هذا دافعي الوحيد لاكمال ما بدأت. سألته كثيرا

- هذه التلفونات ليست مراقبة؟

- يا أخي أحدثك عن الحياة والعمل والأمل فما الشبهة في ذلك؟
أتعرف أين الشبهة حقا؟
-أين؟

-في سؤالك فلو كانت مراقبة لسأل أحدهم الآن مم يخشى هؤلاء؟

احسست بالغباء للحظة ثم قلت:

-ولكن لو هذه للامتناع كما علمتنا يا شيخنا
يضحك ويقول:

-صحيح. لا تخش المراقبة. إلا من الله طبعاً!

الثقة في صوت الشيخ عمرو كانت أكثر من أي وقت مضى. لا أقول أكثر من وقت زيارتي له الأخيرة بل وأكثر من أيام صباي وشبابه في بلدتنا الصغيرة. وقتها كان صوت الحق حقا لكنه صوت حذر يتحين اللحظات والكلمات. أما الآن وكأن الرجل بيده الأمر، أخبرني أنه صار مسئول المباشرة لذا يكلمني وأخبرني انه لن يخبرني بمهمتي إلا حين أبادي كامل استعدادي وكامل اقتناعي بما يقول. كان كل كلامه عن التغيير والحاجة للتغيير لتقوم قائمة الحلم لهذه الأمة.

-وكيف التغيير

-سوف تعرف

-هل ساشترك فيه

-لهذا أنت عندك

-وكيف سيغير كوني ضابط احتياط في المعامل المركزية العسكرية.

-سوف تكون أنت رأس الحربة.

-سانتظر.

-لكن مازالت لديك مهمة أولى قبل مهمتك الرئيسية

-ماذا؟

-تكمل السلسلة.

-هل تريدني وسط الأعداء أن أبحث عن صديق.

-كلهم أصدقاء يلبسون لباس الأعداء فقط اختر.

-ساختر!

قلتها بعزم رغم غرابة الأمر. كنت بالفعل أبحث. ليس فقط عن عضو جديد يصلح للانضمام بل عن صديق أيضا في هذا المكان. زكيت أوقاتى الفارغة خلاف إجازاتي الكثيرة بمصادقة هذا وذالك. وكان معظم الزملاء أصغر مني سنا ومقاما وإن

تساوت الرتبة. فهم خريجو كلية العلوم وهذا على خلافي. كان العساكر لهم نفس الشأن ولكن لا يصح مصاحبة العساكر ولو كانوا بنفس الدرجة العلمية. كان سلطان جنوبي لكن خفيف الظل. أسمر البشرة أبيض الأسنان التي تضحك دائما. كان هو فكاهاة أي مجلس وكان يجاورنا دائما. لكنه لا يصلح. أما سامي فهو على العكس تماما، عابس إلى الأبد لكنه أيضا جالس إلى الأبد يسمع ولا يتكلم حتى أُطلقت عليه بعض الإشاعات. ومن خلال تقريره بأفكاره ومعتقداته تأكدت أنه لا يصلح البتة. وكان محمود أكثر تناقضا. أحيانا يكتنفه الصمت والغموض وأحيانا تغشاه البهجة والخفة. كان قد حصل على إجازة لعلاج أمه في المستشفى العسكري القريب منا وحين عاد كان تناقضه لازال مع اجاباته الغامضة.

-كيف حال أمك؟

-لا أدري!

-كيف؟

-الورم زال وزالت معه الغدة!

أخبرني أن العملية كانت لاستئصال ورم بدأ في التمدد حول الغدة الدرقية. وثمة خطأ ما أدى إلى تشوه في الغدة فوق الدرقية. كان وضعاً دراماتيكيًا؟ هل أواسيه على مرض أمه؟ هل أهنئه على عمل العملية الجراحية؟ هل أواسيه ثانية على هذا الخطأ الوارد؟ قررت الصمت لكنه لم يصمت وكأنه يثبت أنه أقوى من ذلك وأن هذا لم يكن ما شغل باله. سألني عني وأحوالي وماضيي ومستقبلي. وكان الجو منعشا والنجوم مضيئة فلم أجد مانعا أن افضض مستمتعا بالنسيم وبمنظر السماء.

-حياتي سلسلة من النجاحات لشخص مرتبك. والارتباك فشل.

حكيت له كيف كنت أولا دائما في بلدتي الصغيرة في تعليمي الأساسي، وحتى حين أتيت إلى العاصمة تفوقت حقا وحين كبوت لم تطل كبوتي، بل وحتى في كلية الضباط لقد كنت من الأوائل الذين سلموا بأنفسهم على الرئيس.

-كدت أن أكون منهم. فقد رشحتني الحكمدار لكن يبدو أنني أخطأت في أحد الأمور الشكلية فاستبعدني.
ضحكت نظرت إلى عضلاته المفتولة حديثا.
-لابد أنك قضيت جل وقتك في صالة اللياقة ولا قبل لك بأرض الطابور؟

-كانت هناك توصية عليّ بالفعل. وكان متاحا لي في أي وقت الإنصراف والحضور.

-لا بد انها توصية عالية المستوى.

-عميد في جهة سيادية. ماذا تتوقع؟

تصنعت الاعجاب ثم سألت

-قريبك هو؟

-بل قريب أحد أصدقائي

-ويخدمك بهذا الشكل؟

-أنا أيضا مدين له بأمر ينتظر أن أؤديه.

ماذا يمكن أن يؤدي ضابط تحت التدريب لعميد؟

سألته لكنه ابتسم ثم غيّر مسار الحديث.

-وماذا عن مستقبلك؟

-أحاول إلا يكون كالماضي. ربما أضحى به في سبيل إثبات

نفسي.

ضحك بجانب فمه وأطال النظر إلى النجوم متسائلا:

-وكيف تثبت نفسك؟

-الأمر أشبه ببرنامج المليونير. أنت ربما تبقى طوال عمرك تعمل وتعاقر وتتعب وتعرق لعلك بعد عشرين عاما تجمع مليون أو نص أو ربما ربع. لكن في جلسة واحدة في برنامج سوف تحصل على أضعاف ما كنت تستطيع جمعه.
أعاد النظر لي وهز رأسه.

-لست أفهم.

-في البدء اخترت الطريق الطويل. السلم كاملا. السباق من أول مرحله. أي نعم، كنت أولا دائما لكن ظل أمامي الكثير من المراحل. الآن أبحث عن اللحظة الفارقة والقفزة السريعة الغير متوقعة. قفزة واحدة تصل إلى خط النهاية.
ضحك وقال:

-لكن احذر لربما كانت خطرة.

كدت أن أخبره بكم هو على حق. وإن بدا عليه هم مماثل. هل هو بسبب أمه. قطع شكوكي بقوله:

-أما أنا فلم أع أي في سباق إلا في منتصفه. حاولت أن أعوض تقصيري عن طريق طريق مختصر لكنه كان عبارة عن منحدر صعب. صعوده صعب لكن نزوله سهل والأهم سريع.
-هل هدفك الفوز في السباق؟

ضحك وقال:

-في الحقيقة لا، هدفي فقط أن أتخطى أحدهم أو أحاذيه على الأقل.

أحسست براحة مع محمود. بدا وعاء نصف ممتلئ مازال يقبل الجديد والأفكار. مستوى خلقه جيد ويصلي باستمرار. لا يتكلم في السياسة إلا بالسخرية وهو كذلك يبحث عن موطن له في السباق والحياة والمستقبل. وحين فكرت في الشيخ عمرو وفي ذات اللحظة دق جرس موبايلي وحين نظرت وجدت رقمه.

ترددت أرد أم ماذا. وحين رددت وطال بي الوقت وأنا تقريبا لا
اتكلم بل اسمع لكلمات الشيخ عمرو الرهيبية في تلك المرة. وحين
أغلق الخط وأنا لازلت مذهولا. قال بتلقائية:
-من؟

فقلت بتلقائية حمقاء مماتلة

-الشيخ عمرو!

في نفس اللحظة فطنا أننا لسنا أصدقاء إلى هذا الحد أن يسألني
وأن أخبره. لكنه أراد تلطيف الجو فقال:

-أتعلم عرفت أحدهم يدعى الشيخ عمرو. كان إمام جامع
الشريف لفترة ولقد أحببته حبا جما!

تركت الموبايل ونظرت إليه مذهولا. وبيضع جمل قصيرات
اكتشفت علاقة قوية كانت بينه وبين الشيخ عمرو. شعوري
بالوحشة انحسر والسر الذي يثقل كاهلي خف عنه. تذكرت طلب
الشيخ عمرو وقررت المخاطرة.

-سأخبرك شيئا عن الشيخ عمرو!

أ

قررت متابعة الانفجار عبر الطريقتين. كلاهما بدأ من عندي
ولكن لكل اتجاهه. من العجيب أن تكون الشرارة الأولى للخطأ
عبارة عن شرارة بالفعل. شرارة في معمل ما ضمن المعامل
المركزية. حادثة قد تحدث. ربما تفاعل كيميائي أو ماس كهربائي

أو.. أو. ربما يتفرغون لمعرفة الأسباب وربما لا يتفرغون لذلك قط. فالنتيجة ستكون أهم بكثير من السبب. أما الشرارة الأخرى فستكون عبر الشاشة. في مكتبي المضيء الساهر في الجهاز الذي يكاد يغفو. جلست أتابع الأنباء في طور بدايتها عن صوت انفجار مجهول في وسط العاصمة. ما هي إلا دقائق وتؤكد الخبر بوسائل شتى. أحسست بحركة في الداخل والخارج وقد بدا أن الجهاز الذي كاد يغفو صار يصحو. اقتحم علي أحدهم الباب ليخبرني بالخبر الرهيب على حد قوله. كدت أن أخبره أنني مازلت ساهرا من أجله وأن الخبر هذا أعرفه منذ الصباح أي من قبل حدوثه بساعات. يقولون أن العيسوي قادم. يقولونها بهلع ويحضرون قاعة الاجتماعات. لا بد أن يأتي.. بل سيأتي مفزوعا عليه علامات الغضب. وكأنه لا يعرف كيف حدث ذلك. أما أنا فينبغي لي نفس الشيء ولكن لو لم افعله لما لاحظ أحد شيئا. هكذا وحين أتت العاشرة حولت المحطات على خليل. كنت أعرف أنه لا ضيوف عنده اليوم وأنه سيخصص تلکم الحلقة لهذا الانفجار لكن لا بد أنه كان ذكيا بما يكفي واتفق بالفعل مع ضيوف ثم اعتذر لهم. فيبدو منطقيا حتى ولو لطاقم برنامجه. لا بد خاصة لو كان يجيد التمثيل إلى هذه الدرجة. فالغضب المتفجر الباد على وجهه كان حقيقيا تماما. حركات يده وإشارات حاجبيه وأصابعه اقنعتني أنا شخصيا. كان تسلسل الحديث معروفا ومتفقا عليه من قبل. الحديث عن الإهمال أولا الذي يضرب البلاد. ثم الحديث عن الجيش الذي أصابه العطن كما أصاب غيره ثم المناشدة. المناشدة الإنسانية أولا للسيطرة على الحريق ثم مناشدة الرئيس بالتدخل بل بالذهاب لنفسه لرؤية ملابسات الوضع. سوف يكررها ويكررها ومن ورائه كل الإعلاميين الذين يريدون السبق كما لخليل. وهكذا سيتم تهيئة الرأي الرسمي ثم العام أما العسكري.

-احضر حالا إلى قاعة الاجتماعات.

كان ذلك من المكروفون الداخلي بالمكتب. الخطوات واحدة تلو الأخرى تتم بسلاسة. ارتديت الكاب وقمت مسرعا. إلى الأسانسير إلى الدور الأرضي إلى الباب السحري إلى القاعة. لم يكن الحضور كثيفا كما توقعت، ولم يشمل كل الضباط ولا حتى كل الرتب الكبيرة. ولم تتح لي فرصة كبيرة للتأمل أذ كما توقعت كان العيسوي منفعلا يصرخ ويساءل هذا وذاك عن أوجه القصور -انفجار ضخم بهذا المكان الحساس في كبرى المعامل العسكرية وبجوار قصر الرئاسة؟ ولم نستطع أن نمنع الكارثة أو نتنبأ بها. إذن فعلى الأقل نكون أول من نعرف.

أطرق العميد الزيني والعميد سمير فلهما إدارة قسم المعلومات.

-الآن تواصلنا مع الشرطة العسكرية والحماية المدنية وهم يطوقون المكان جيدا ومتوقع أن ينحصر الحريق خلال ساعة أو اثنتين.

همهم الجميع برأسه

-لم يغادر أحد من افراد أو جنود أو ضباط المعامل. فقط تم عزلهم عن مكان الحريق وامدادهم بفريق طبي مضاف لما عندهم -وما دورنا نحن الآن يافندم؟

كانت تلك مني. نظر لي شزرا أو حاول. ثم قال:

-لو كنا لم نعرف فدورنا أن نتظاهر بالمعرفة!

اشار لنائبه اللواء سنهوري وهو بمثابة الرجل التنفيذي ومن خلفه العقيد يونس.

-تعرف ما دورك ستعرف ما وراء الأمر بكل هدوء.

ثم نظر للعميد أشرف.

-وانت دورك العكس الصخب والادلاء الإعلامي قبل أن
يسبقنا غيرنا ينبغي أن نوجه نحن الدفة. شكل فريقا وضعوا اسبابا
مقنعة لما حدث ولا تملوا من تكرارها لكل الصحف والقنوات
ثم نظر اليّ.

-أما أنت فدورك التواصل مع رئاسة الأركان وديوان الرئاسة
لترتيب زيارة مشتركة إلى مقر الانفجار. هناك من سيستغل ما
حدث للوقية.

رفعت يدي بالتحية مبديا حماسي.

-علم يافندم.

رفع أحد الحاضرين يده

-ولكن يافندم الإعلام ناشد الرئاسة التدخل بالفعل.

بسمه لاحت على وجه اللواء داراها بغضب مفاجئ

-أرايت.. أرايت كم نحن متأخرين؟

اما أنا فلم اكنم بسمتي طلبت الإنصراف لمباشرة المهمة!

م

كان توترا غير عادي هو ما شاب رامي الشامي. لم أكن
أعرفه من قبل. وإن كنت ظننت ذلك مرارا كلما رأيته. هو إذن
من هؤلاء الذين أشعر أنني رأيتهم من قبل. هذه ظاهرة عامة على
أية حال وسط البشر، لكن رامي كان مختلفا أيضا. هو كذلك من
الأشخاص الباد عليهم الذكاء بشكل واضح. عيانه اللامعتان
وجبهته الواسعة بالاضافة إلى شعره المنكوش أحيانا، هيئة

العلماء ربما. لذا لم يكن غريبا حين عرفت أنه من اوائل دفعته. طبيب هو، ذكرني برغبتي الأولى في دراسة الطب كحال الجميع. لكني الآن لست نادما على شيء ولست راغبا في شيء إلا في خطة واحدة أتمنى أن تتم. خطة صغيرة هي. أما رامي فلم تكن له خطة على الاطلاق. أو هذا ما بدا لي مبدئيا رغم أن العكس هو ما ينبغي. وبدا الأمر جليا في توتره هذا حين أتاه التليفون اثناء محادثتنا الأولى المباشرة. أي نعم، كنت أراه هنا وهناك وهو لا يكف عن التنقل ربما مللا أو قلقا أو فراغا. لكننا لم نجلس وحدنا قط. وحين جلسنا اندهشنا وكأن كل منا قد وجد بغيته في الآخر. وجد من يبحث عنه هكذا عرفت. وأنا أيضا وجدت ما أبحث عنه لكنه لم يعرف! ليلة طالت وحوار عجيب طال بنا حقا حتى قرب الفجر. حوار لم اتذكره إلا في اليوم التالي. هل كان حقا؟ هل كان ما انتظر؟ لذا عرفت انه يوم مختلف. أي نعم، مر النهار مرور الكرام في أحداثه التقليدية بين الطوابير العسكرية ومعمل ابحاث الذخيرة موطن عملي الساذج المعتاد. ولكني كنت مازلت مترقبا ألاحظ كل الحركات في كل الاتجاهات حتى أنني لم أذهب إلى تناول الغداء. لاحظت حركة غير عادية في معمل كيمياء الغازات. ثمة شيء ما ينقل إلى الداخل وآخر إلى الخارج. تظاهرت بالسلطة قليلا واقتربت من أحد العساكر العاملين.. لم يلحظني

-قف انتباه يا عسكري!

فعلا، لكن تلاقى أعيننا كاشفة عن شيء

-أبو علي؟

-محمود؟

سلمنا وقد احسست بالخجل يكتنفني من معاملة عسكرية لزميل الكلية. لكن فسرتها له.

-كنت ألفت انتباهك فقط.

تبادلنا الكلمات وعرفت انه من ادارة الحرب الكيميائية وانهم ينقلون أشياء لا يعلم إلا الله محتواها. فكرت أن أسأل ضابط المأمورية لكنه كان شرسا وأعلى رتبة. تراجعت لكنني تأكدت أن ثمة أمرا. وبقيت على اعتقادي حتى المغرب حيث كنت أول من شاهد السنة النيران في نفس المبني. ظننتها بسيطة لكنني أدركت أنني لا أرى سوى رأس الجبل العائم. ورغم سرعة وجود قوات الحماية المدنية العسكرية ورغم تناقض الالفاظ ورغم أداؤها الجيد إلا أن الأمر لم ينته سريعا وربما لم ينته بل ازداد واتصل بمبان أخرى وأوقع الكثير من الإصابات. لكن ثلاث ساعات كانت كافية لإيقاف الأمر بعد أن أتى على مبني كامل وأنصاف مبان أخرى. كنا قد تجمعنا كلنا في المبني المهجور الملاصق للسور القديم في أقصى منطقة المعامل. مبني لم يدخله أحد ربما لسنوات وظل قائما لا يعرف ما أهميته ولا أحد يعرف. لكن كان له دور ربما هذه المرة. وكان دورا اشتراكيا كذلك. فلقد تجمعنا كلنا عساكر ضباط معا نراقب معا ونخاف معا ويصلنا بعض الغازات الخائفة معا. كنا كل التقنيين في المكان أما بقية العسكريين غير التقنيين فكانوا بالخارج يشاركون في وضع خطة إيقاف الحريق. أما أنا فكنت أرتب الخطوات كما تبدو لي. وحين وصلت إلى لقطة معينة التفت حولي أبحث عنه،.. عن رامي الشامي!

تسللت بسهولة من الشباك القصير الذي ناسب هذا الطراز من المباني العتيقة. التفتت حول الحديقة المهملة لأصل إلى الحدائق غير المهملة. الجو يزداد اختناقاً لكني لا أهتم. لابد أن أكون في الدائرة المغلقة قبل مجئ السيد الرئيس وهي الخطوة قبل الأخيرة في الخطة المنتظرة التي أعلمتني أخيراً لماذا أنا هنا. القلق الذي ساورني في البداية تحول إلى حماس؛ حماس من لا يعلم شيئاً وقد صار يعلم كل شيء ولو من بين ذلك موعد نهايته. في الأفق لاح الجمع الواقف وفي الخلفية النيران الموقدة. وقبل أن اقترب -ماذا تفعل هنا يا دكتور؟

كان صوتاً جانبياً طارئاً. التفت يساراً لاجده النقيب عاصم وهو من ضباط الأمن. لم تخني سرعة بديهتي وقلت بلهجة حازمة -طلبوني بسرعة. هناك حالات اغماء كثيرة جراء الاختناق. أسرع الخطة في عياني كل الجد والتصميم لكنه لم يسكت بل لحق بي قائلاً.

-لكن هناك اسعاف بالفعل.

توقفت حينها ونظرت له بنبات

-هل أنت مسئول أمام اللواء محمد رشيد عن تعطيلي المستمر

في تأدية واجبي.

تلجلج لحظة وقال:

-أنا أيضاً أقوم بواجبي

-واجبك أمن المكان من الغرباء وليس من الأبناء.

بدا عليه اللين فقررت التماذي.

-اتعرف كدت أنا شخصيا أن احترق فقد كنت جوار المكان وقت الحادث وأنت الآن تمنعني من اسعاف زملائي الذين كنت قد اكون منهم.

للحظة انعكست الآية واحسست أنني صرت الأعلى رتبة وهو من يتلقى الأوامر.. التأثير بدا عليه.
-اذن سأوصلك بنفسي.

-لا بأس عليك سأذهب وحدي اؤدي واجبي وأنت هنا تؤدي واجبك.

وقبل أن يرد أكملت طريقي وبعيني الثالثة تخيلته واقفا شاعرا بالذنب مما جعلني ابتسم بل وضحكت كذلك ولولا صوت النار والناس لسمعتني هذا المغفل. وصلت إلى ساحة الحريق. نبعد عن البوابة الرئيسية بطريق ملتو طوله 200 متر. الحقائق على جانبيه لا يقطعها إلا مبنى اداري. أما المعمل المحترق فهو المبنى التالي مباشرة ومن أمامه ساحة خالية وساحة انتظار سيارات. وكلا الساحتين مملوء الآن بالبشر بين عسكريين وأعمال حماية مدنية ومسعفين. وقد صرت الآن بينهم. لم ينظر اليّ أحد أو يتساءل أحد وكلهم مشغولون. أما أنا فلم تشغلني قط تلك النار ولا حتى اختناق النفس الذي قابله اتساع قنوات التنفس من فرط الادرينالين. فقط صرت محترفا أبحث عن مكان جيد لأداء عملي. كان لباسي كاملا بالبذلة العسكرية كتب على صدري الملازم رامي الشامي ضابط طبيب لذا لا بأس من الاحتماء بإحدى عربات الإسعاف العسكرية. انتقيت إحداها ووقفت جوارها. بداخلها أحد المصابين. جندي هو أعرفه. لكنه ليس زميلا. معه مسعف لم يلتفت لي. وطبيب العربة كان في الأمام مع السائق ينظر بانبهار لأعمال إعادة السيطرة والإغاثة. جيد. لم اعتمد أنهم سيظلون مشغولين بالحريق الذي كاد ينتهي. لكن بالخبر المنتظر

لذا لا بد من إثبات وجودي الآن. تقدمت من السيارة. ومددت يدي
أسلم على الطبيب.

مد يده بتردد لكني لم أمهله.

-مرحبا بكم أنا الطبيب رامي الشامي ضابط طبيب المعامل
المركزية هنا نشكركم على المساعدة الجمة لنا الآن.

نظر إلى البادج على صدري. فزال بعض استغرابه وكاد الثلج
أن يذوب خاصة وقد بدا يُعرَف نفسه.

-أهلا يا دكتور معاك دكتور أحمد أبو الحسن.

-شكلك تعب كثيرا

بدا يتظاهر بالتعب والفخر.

-ثلاث ساعات يا دكتور والأمر كما ترى.

-هانت إن شاء الله. لم تقل لي خريج دفعة كم ومنذ متى في

الجيش؟

أخذنا الكلام حتى نسينا أن الحريق قد انتهى الآن بالفعل. وإن
ما تبقى ليس سوى دخان ورماد. ولم ينبهنا إلا أحد المسعفين وهو

يسأل الدكتور

-ألن ننصرف الآن يا دكتور.

-في انتظار الأوامر.

بدا التضرر على المسعف والتعب على الدكتور فرفع جهاز
اللاسلكي يطلب التعليمات وجاءته مسموعة تقول:

-سنبقى في مكاننا فهناك أنباء عن زيارة مهمة لقادة الجيش

-علم يافندم.

بدا الضجر عليه وقال لي:

-تبا. قد ننتظر إذن حتى الصباح

تدخلت بدوري قائلا:

-يقولون كذلك أن الرئيس قد يأتي.

-لاااااااا هكذا سوف ننتظر إلى مساء الغد.

ضحكت وقالت:

-لا تخش شيئا. فالقصر هنا في الجوار.

وكان بالفعل قصر إقامة الرئيس يبعد مسافة لا تزيد عن عدة شوارع قصيرة. لكن هل بالفعل سينفذ بنفسه خطة اغتياله ويأتي في تلك الليلة المهيبة. أم أن الشيخ عمرو وأعوانه في الداخل والخارج قادرين على تلكم المعجزة. لم تطل حيرتي ورأينا عربات مدرعة متتالية تدخل وينزل منها افرادها في زي مميز. قلت فيها يا عم. سيأتي بالفعل.

قالها الطبيب وهو ينظر إلى قوات الحرس الجمهوري المتزايدة التي تملأ المكان وتصنع كردونا خاصا حوله. هذا الكردون الذي أتيت قبل حدوثه. ولم يعلم الطبيب حينها كيف كان يدق قلبي وقتها حماسا وخوفا. إذن لقد صدق الشيخ عمرو واستطاع وقام بدوره وبقي دوري. تحسست حزامي حيث تعلق به ما تعلق وتابعت قوات تأمين الرئيس وهي تدخل لتسأل كل الموجودين عن طبيعة عملهم وسبب وجودهم بل وتفتش اي مدني. هل سيحسبونني مدنيا أم أن تلكم البدلة العسكرية ستحميني؟ اقتربوا من سيارات الاسعاف وفتشوها أولا. أنزلوا السائق والمسعفين وفتشوهم. الطبيب بدا على استعداد للتفتيش. لكن طبيب عربية إسعاف أخرى رفض التفتيش. ولما علا الصوت اقترب أحدهم برتبة عقيد في الحرس الجمهوري ولما علم المشكلة وبخ المفتش وهو برتبة ملازم وقال:

-هتفتش ملازم مثلك. أسفين يا دكتور.

ثم نظر إلى الملازم وقال:

-فقط تأكد من الهويات وأسباب التواجد.

وبالفعل لم يكذب خبرا. وحن الدور علينا بعد دقائق وحين
نظر في عيني حاولت اخفاء القلق لكن لم أستطع هذه المرة وقبل
أن يقول شيئا كان صوت السارينات يدوي. يبدو فعلا أن القصر
أقرب مما كنت أتصور!

أ

لم يكن أمرا صعبا إقناعهم بالأمر عن طريق بعضهم البعض.
اتصلت بالرئاسة معلنا رغبة الأركان في الحضور واتصلت
بالأركان معلنا رغبة الرئاسة في الذهاب. ربما التقوا وقد ظن كل
منهم أن له الكلمة العليا والأهمية الكبرى. وربما تناوشوا مختلفين
وربما شعروا بشيء ما يحاك. لكن لا بأس سيقضى الأمر ربما
قبل هذا ولو لم يُقضى لظل أمرا جديرا بالمحاولة. لماذا أنا متفائل؟
معظم عمليات الاغتيال تفشل عادة. لماذا أنا هادئ؟ معظم تلك
العمليات تكتشف هي واصحابها. أشعر كأن الأمر أشبه بفيلم
سينمائي أو بلعبة فيديو. لكن هل لو فشلت تلك المهمة هل سيتيح
لي القدر غيرها. لم أتخيل قط وأنا الرجل العسكري أن أنقلب بهذا
الشكل غير العسكري بالمرّة لكن وماذا أفعل إذا كان ذلك هو
السبيل الوحيد لاسترجاع مكانة العسكرية؟ أي نعم، أني شاركت
كثيرا في تنمية تلكم العسكرية المريضة بشكلها الحالي لكني لم
أكن مقتنعا قط. كان منظورا مهنيا بحتا، أما الآن فأنا أنظر إلى
إعادة إنتاج كاملة. هذا هو المدخل الوحيد لي والذي استغله جيدا
اللواء عيسوي الذي قرأني بحصافة رجل مخابرات حقيقي.

أخبرني أنه بعد مقتل الرئيس ورئيس الأركان سيحصل صراع واضح سيستطيع هو حسمه. فوزير الدفاع المكروه من الجيش سيرفضه الجيش بأكمله في غياب من عينه ثم سيتوافق عليه هو وسيصل خلال عام إلى الحكم. وحينها سيتغير كل شيء. هكذا يعد وهكذا ليس امامي إلا تصديقه. بل ويسعدني اذن أن أكون جزءا من الخطة. كانت تلك الافكار هي ما يساورني في طريقي إلى المنطقة المنكوبة. قبلها بعدة شوارع كانت الشرطة العسكرية تنصب كردونها واكمنتها. كنت في سيارة وحدي مع جندي سائق وقد سبقتنا سيارة اللواء عيسوي وسيارة أخرى تقل ضابطين. وحين صرنا ربما على بعد 100 متر توقفنا في صف قصير يشمل ثلاثتنا وسيارات التأمين.

-ماذا هناك؟

قلتها فحاول السائق النظر من النافذة وقال مفسرا ما رأى -يبدو أن هناك موكب آخر يدخل الآن قبلنا.

اتجهت بدوري إلى احدى النوافذ لأرى. كان موكب الرئيس بلا شك. لقد سبق الجميع بشكل غير متوقع. ترى أين رئيس الأركان أم أنه قد سبقه بالفعل إلى الداخل. كان الموكب قد انتهى بينما لا زلنا واقفين. ولمحنا مجموعة من الحرس الجمهوري تقترب. ويحهم إلا يعلمون أن هذا موكب جهاز المخابرات أم أن في الأمر أمر. ساورني القلق. ثم رأيت اللواء العيسوي يترجل من سيارته ومن بعده الضابطان وحين رأيت ذلك ترجلت كذلك ولحقت بهم. تقدمنا عقيد من الحرس الجمهوري. بدا واضحا أن هذا من احتياطات أمن الرئيس ليس الا. لن يدخل إلا المسموح لهم. لا سيارات أو سائقين أو قوات تأمين. يبدو أن الاجراءات قد شددت خاصة بعد حالة الغضب التي تسود البلاد حتى على القوات العسكرية. أم انهم علموا بأن الأعداء صارت تمتد من

المدنية إلى العسكرية. أشار لي اللواء عيسوي لاقترب منه اثناء مسيرتنا إلى مدخل الموقع وسط صفين من جنود الحرس الجمهوري.

كنا قد اجتزنا البوابة. وقد هانت المسافة بالفعل بالقرب من مركز الاحداث. لم يكن هناك من الإعلام إلا الرسمي منه المقرب للرئيس يرافق دخوله وجولته. لكن الركب كان متوقفا أمام أحد المباني المحترقة وقد بدا أن شخصا ما يشرح شيئا ما للرئيس المحاط بما شاء الله من الأجسام. في اي لحظة من الآن يفترض أن تتم العملية. لكن ترى أين المنفذ والأهم.

-أين رئيس الأركان؟

سألتهما اللواء عيسوي الذي توقف بالقرب من الركب دون اللحاق به. بدا متوترا قليلا وقال:

-هناك خلاف ما حدث وربما لن يجيء.

أحسست بالصدمة وقلت متجاهلا احتياطات الأمان
-والعمل؟

كانت "الخطة ب" لنا في حالة عدم التخلص من الرئيس ورئيس الأركان كليهما هي التخلص من أحدهما أو ممن تواجد ومحاولة إدارة الأمور حينها حتى يصل العيسوي رئيسا للأركان فلو قتل رئيس الأركان لاختاره الرئيس خلفا ولو قتل الرئيس لصارع الجيش كي يصبح رئيس الأركان الرئيس وحينها سيخلو المنصب ويؤول غالبا إلى العيسوي وحينها سيصبح أكثر قربا للخطة التي ستطول قليلا أيضا حينها. لا بأس أن تطول المهم إلا تفشل.

لكن رئيس الأركان لم يكذب خبرا هو الآخر. فبينما نحسب الاحتمالات السوداء أمامنا لمحنا قامته القصيرة يحيط به رجال الكوماندوز المميزين كذلك والذين اختارهم بنفسه واصطفاهم له

بدلاً من العمليات الخاصة للوطن صاروا حراسات خاصة لجنابه. الغريب أن أحد القنوات الخاصة المحسوبة كذلك على النظام كانت ترافقه. كيف سمحوا لها بالدخول؟ كيف يتحدى الرئيس بهذا الشكل الفج؟ لست أدري. وربما كان التفسير الأقرب هو تفسير العيسوي أن كليهما كان يفكر بالفعل بالاطاحة بالآخر ولهذا تحركنا نحن مبكراً. لكن ما كان يشغل بالي حقاً هذا الانفصال بينهما. لابد أن يجتمعوا في مكان واحد خلال دقائق. فكرت وقدرت سأستخدم نفس خطة وجودهم هنا. تركت العيسوي فجأة واتجهت ناحية رئيس الأركان مظهرها هويتي للبالغ من حوله وقلت:

-سيادة القائد. الرئيس يبحث عنك كي تعطي توجيهاتك وتدلي
بتصريحاتك في الأمر!

م

ما أنا فاعل؟ علام أبحث؟ وماذا أتقنى؟ ماذا يحركني؟ كيف صرت هذا الرجل في يوم وليلة؟ أهى العسكرية أم ما بعد العسكرية أم أوهام قديمة أم طموحات حديثة؟ كنت قد خمنت أنه استخدم هذا الشباك للخروج. بعيداً عن الأنظار، منخفض يطل على الفراغ. لكنه لم يكن ذكياً بما يكفي. فهذا المنعطف يعرج على نقطة حراسة خلفية ومن غير المستبعد أن يراه أحد. كنت مقتنعاً أن أقصر طريق إلى مكان هو الخط المستقيم. وأؤمن الطرق دائماً هو استخدام الباب لا الشباك. وهكذا قررت الخروج

من الباب الذي لا يلاحظه أحد وسلوك الطريق العام الذي لا يخشى منه أحد. حضّرت عدة سيناريوهات للانكشاف وحجج مقنعة ولكن ويا للعجب. لم يعترضني أحد قط. بل أني وصلت قبله. فقد رأيته ينسل بنفسه من الجهة الغربية جهة الشباك الذي توقعته. لا بد أن شيئاً ما عطله كما توقعت لكنه وصل في النهاية. لم يختبئ بل أظهر نفسه بشكل طبيعي. أما أنا فما من سبيل غير الإختباء. ساراقبه. وانتظر هدفه. دقائق أخرى وإذا بعربات محملة بالحرس الجمهوري تنتشر. مهمته ستكون صعبة. أما أن يقتله هؤلاء أو، وهذا هو الأسوأ، يعتقلونه. لكن الأسوأ من ذلك أن يفعلوا ذلك قبل أن يقوم هو بمهمته. كنت أتنقل برشاقة بين الحضور. لا شك أن بعضهم اعتبرني رجل إطفاء أو الآخرون رجل اسعاف والبعض مسئولاً أمنياً للمكان لكن لو دققوا للبادج على صدري لوجدوا أنني ضابط فيزيائي محمود ابراهيم. لم اسمح لأحد أن يدقق وكذلك لم أسمح لأحد أن يفتش فبيسطة انتقلت من صفوف غير المفتشين إلى المفتشين. حتى دخل الموكب الرهيب، وترجل منه من لم اره قبلاً بعيني المجردة لكن لم افتأ أراه عبر الشاشات. الرجل القوي الذي كان بطلا وصار ثقلاً. لم أهتم قط جدياً بالسياسة لكني الآن أمام حدث استثنائي. عملية اغتيال لم يعرفها سواي ولم يقم بها ويا لمزيد العجب سوى هذا البريء الحيران. تبادلتنى الأفكار لكن شغلني ما يحدث أمامي ورغم التظاهر بالتأمين لكنه كان فعلاً مرتبكاً بحكم العجلة والمفاجأة. لذا بدا الرئيس في تلك اللحظة كأى مسئول محاط بحراسة وهمية لا تمنعه من جاذب أو شاتم فما بالك بقاتل؟ لكن الأمر هنا مختلف. أفي عقر دار الجيش يُعتدى على الرئيس؟ لكن رامي كان يكسر القاعدة. كان يقف هناك أراه بوضوح كما أرى الموكب بوضوح. وكانت الفرصة مواتية له كما أظن عدة مرات لكن ماذا ينتظر؟

هل هو رئيس الأركان الذي وصل وابتعد ثم اقترب. اقترب مع مقدم أعرج ناحية موكب الرئيس واخترقوه في سلاسة. إذن كان ينتظر تلك اللحظة. دققت النظر فرأيته يستعد الآن. دققت النظر ثانية فعلمت أن لا أحد منتبها. ومع اتخاذه وضع التصوير اتخذته معه من خلف عربة اطفاء. هو كان من الاوائل في كلية الضباط هو حصل على العلامة الكاملة في التصوير. أنا نقصت درجة واحدة. لكن لا بأس. هدفي أسهل منه. هو هدفه اثنان وأنا هدفي واحد. ترى هل يفعلها؟ ولو فعلها، هل افعلها أنا؟ للحظة طافت بي ذكرى قديمة تقول أن ضرب طوبة كضرب سكين كضرب رصاصة. المهم اجتياز الحاجز النفسي. وحين أمطرت رصاصاته الست منتصف دائرة الرئيس لم ألحظ من أصابت الرصاصات. فقط لاحظت الجميع وهو يخفض رأسه بما فيهم أفراد الحراسة. وحين أخفض مسدسه وقبل أن يتحرك جاريا أطلقت أنا رصاصتي، على رأسه مباشرة!

2040

(2)

- لقد صرت وزيرا للدفاع!

لم يقل المتصل أي شيء. فقط قال هذا الخبر مجردا. وكأن الأمر عادي وكأنه لا يستحق التفكير أو التأكيد أو الفرحة. إذن آمال اللواء محمود شاهين الجالس في حديقة فيلته في عيد تأسيس الجمهورية لم تكن قصورا رملية بل جسورا معدنية ربما تنقله إلى بعيد. فقد كان قد توقع الأمر منذ أيام خاصة حول التغيير المنتظر. فمع رياح التغيير التي ينشدها الحكم سيتغير وزير الدفاع. والتغيير يجب أن يكون أكثر جدية وجذرية، ليس قط تغيير اسماء. بل ربما تغيير للوجه العسكري بآخر مدني. وبالطبع لن يكون مدنيا لا يفقه شيئا في العسكرية. بل مدني وبدرجة لواء. مدني وفي للسلطة. مدني مشهور حاصل على نوط الشجاعة. سيكون هو الأفضل كما خمن لنفسه وخمن له غيره. سيختاره الرئيس. لم يكن يعرف العيسوي جيدا. وحين سلم عليه منذ عشرين عاما ليقبله نوط الشجاعة ونظر في عينيه التي يعرف لغتها جيدا، عرف أنه شديد الذكاء والطموح والمكر. ولم يُكذّب خبرا، ففي غضون عام قد صار الرئيس وفق جدول بدا مرسوما بدقة لمن يفقه أو يتابع. حديثه عن المؤامرة الدائم بدا مكررا وحملاته الأمنية التي تدق أبواب الناس فجرا بحثا عن أهداف تهدد الأمن بدت مبتذلة. في خطاباته ألمح كثيرا إلى الأمر. هناك تنظيم سري ينبغي أن نكافحه. يعيش بيننا ويجب أن نستأصله وفي إحدى الحوارات التلفزيونية التي خاضها قال بالخطأ أنه كان عضوا فيه بالفعل. أغلب الناس بدا غير مصدق والبعض الآخر أظهر تفاعلا وبلغ بالفعل عن بعض التحركات المشبوهة أو محاولة ضمه لذلك التنظيم. لكن في النهاية لم يصل الأمر إلى شيء واعتبر اصحاب تلك البلاغات مريدي شهرة أو يريدون

كيدا. لكنه كان يعلم كم أن الأمر حقيقيا. وأن العيسوي رغم كذبه في كل وعوده فقد كان صادقا في أمر هذا التنظيم الأشبه بنجم البحر ذو الأذرع الطويلة غير المترابطة. لكن عدة سنوات أخرى أنست العيسوي نفسه الأمر. إما أنه قد فقد الأمل في تعقب هذا الكائن البحري الهلامي أو انشغل في توطيد حكمه وبناء سوره وحماية نفسه. أي انشغل بالدفاع عن الهجوم. هذا إذن يتيح للخصم الهجوم. الهجوم الذي انتظره محمود توقعا وإن لم يرغب قط أن يحدث. الهجوم الذي ربما يبدأ به الآن حين تنبه وعرف أنه لا يدري من يكلمه أو يبلغه الخبر.

-مَنْ؟

قالها غير مصدق فسمع من يضحك ويقول:

-أنت تعرف مَنْ.

بالطبع كان يعرف مَنْ. في مثل ذلك اليوم منذ عشرين عاما كان يذكره بقوة. وكان لا يصدق حينها بأمر ذلك الشيخ العالم الذي عرف عنه أنه أقرب لزعيم عصابة. واي عصابة! إنها مافيا تخترق الجميع بالجميع. تخترق النفوس والافكار وتسيطر آليا على العقول. لم يصل إلى تلك الصورة ليلتها. فقط عاوده الإعجاب القديم بشيخه الشريف. وأعلن بيعته على عجل. لكنه اعتبرها أقرب إلى الهزل ولم يصدق إلا حين رأى الحريق بأم عينيه. ساعتها عرف أن من بإمكانه عمل ذلك الحريق بإمكانه فعل ما يريد. وانه يجب أن يتخذ موقفه الآن. وقد قرر إنفاذ البيعة. ألم يقل إنه تنظيم يخترق النفوس ويسيطر على العقول. وعقله كان مخترقا من قبل. فلم يكن رامي أول من كلمه. كما كانت له غاية أخرى حدثت كما خطط بالضبط. كانت مهمته لا تقل خطورة عن مهمة رامي. الأول سيقتل الهدف والثاني سيقتل رامي. وكانت تلك أحد سياسات التنظيم: قطع السلسلة بعد

الإنكشاف وخشية الإنكشاف. وهل كان من مخرج لرامي غير الإنكشاف والقبض عليه وفي أفضل الأحوال القتل؟ اذن فبيده لا بيد غيره. أنتظر رصاصات رامي التي حصدت بالفعل الرئيس وحارسه ومقدم في المخابرات والباقي أصاب رئيس الأركان واثنين من رجاله. رئيس الأركان الذي بدا وكأنه متورط في المؤامرة أمر بترقيته ومنحه نوط الشجاعة فقد قتل من كاد يقتله وبذلك حقق له ما أراد من شرف يضمن استمراره بالعسكرية. والأهم أمر أن يحل محله العيسوي الذي سرعان ما صار وزيرا فرنيسا. متأمر على المؤامرة التي مهدت له الطريق. حتى أنه أعاد تكريمه وترقيته بصفته هذا الشجاع الذين وقف في وجه اعداء الوطن وقتلوا رمز الوطن. حينها نسي محمود الأمر. وظن أنه بالفعل قتل أعداء الوطن وأنه لم يكن قط منهم ولم يتبق في ذهنه غير صورة رامي فقط كصديق أهداه الفرصة كي يصير صاحب هذا الشأن؛ الشأن الذي قلده المناصب التقنية في الجيش واحدا تلو الآخر والذي زوجه بمن يريد دون عناء والذي وصل به فيما يبدو إلى أن يسمع ذلك الخبر. لكن ممن؟ ممن نساها دهرا ولم يذكره قط إلا حين حديث الرئيس حول تلكم المؤامرات. لكنه كان ينسأه من جديد عمدا.

-كيف عرفت؟

-هذا أسهل ما قد اقوم به!

قالها الشيخ عمرو بثقة. قالها -رغم انه صار في عقده الخامس الآن- بنفس صوته العميق الرزين وكأنه ما زال يسمعه باعجاب في المسجد حين مرأهقته. يا الله. كيف تطوف كل تلكم الذكريات في رأسه معا. المسجد، الدرس، ثم ندى وأبوها. ثم صديقه الذي سافر بلا رجعة الآن والكلية والمقهى والجيش والمانجو! ارتشف رشفة من كوب العصير متمهلا بينما الطرف الآخر من الاتصال

الصوتي لا يستعجله البتة. هو هو الشيخ عمرو بنفس رزاقته. ويحه، إنه مازال معجبا به! إنه مازال يفكر في اتباعه. نظر بسرعة إلى زوجته التي كانت على الطرف الآخر من الحديقة تستعد بدورها إلى الهبوط للسباحة مع ابنتها. زوجته التي مازال معجبا بها أيضا وهي التي خطفته من الشيخ منذ سنين. أحس بتوازن ما بداخله جعله يسأل بجديّة ولهفة:

-وماذا أيضا ستقوم به؟

-ما ستقوم أنت به ونعينك عليه.

يقولها ببساطة وكأن مفاتيح عقله لازالت في جعبته. وكأنه لازال مراهقا أو شابا ولم يعد كهلا بدرجة لواء اشيب الفودين. يقولها بسهولة وكأنه لا يعرف أنه قد يلقي القبض عليه بذات تلك السهولة. لكن محمود كان يعرف أكثر من غيره أن القبض على مثل هذا هو شيء بلا فائدة حقاً ويضر أكثر مما ينفع. كما أنه لا يريد. ما زال يحبه لا ريب! العواصف في ذهنه لا تهدأ. التناقضات عادت تعصف به بلا رحمة. ولما طال صمته سمع من ينهي الإتصال بقوله:

-مبروك.

واغلق الخط. كان يعرف أنه هو من سيكلمه بعد ذلك. وأنه هو من سيطلب معاونته. لكن العبرة، مَنْ يصل على أكتاف مَنْ؟ مَنْ سيكون جسرا لِمَنْ؟ ألم يتعلم ذلك الشيخ من الماضي. ما سر تلك الثقة؟ هل سرها قوة الفكرة التي تعصف الآن بمحمود؟ عزة الدنيا بالدين والأخرة خير وأبقى، أم أنه يبالغ، فهو النفس وهوس السلطة ربما أقوى ويبقى الله غفور رحيم؟

-ألن تجرب الماء يا أبي؟

قالتها فينوس ببراءة تليق بهذا الاسم وذلك الجمال. لكن أمها ندى اقتربت منه دون أن تهبط وقالت:

-مالك. ماذا كان ذلك الاتصال؟
-صرت وزيرا للدفاع!
بدا عليها الوجوم للحظة
-هل تقول الحق؟
هز رأسه فاقتربت لتحضنه وقالت غير مصدقة بصوت
متدرج العلو ترافقه ضحكة ودمعة.
-هذا أسعد أيام حياتي.
ثم استدركت
-لكن لا.
نظر لها متعجبا فقالت بعيون تضيق مكرًا:
-أسعد أيام حياتي حين تصبح رئيسا.
ثم نظرت بتحد
-أم أنك لازلت لا تريد؟
بدا عليه التردد والحزن واشاح بيده ليبعدها عنه وأخذ يتمشي
حول المسبح وهي تلاحقه. تطالبه بالرد وهو لا يرد. حتى صرخ
فجأة بصوت عال، وقفز في الماء بملابسه التي ابتلت!
حينها ضحكت ابنته وظلت تضحك بينما ظل هو عابسا!

-تمت-

تبدو هذه الرواية، في واحد من وجوهها
عملا أدبيا ذا طبيعة سياسية. إلا أنها
يمكن أن تكون عملا ذا طبيعة بوليسية شديد الحبكة.
بل وربما يمكن قراءتها على أنها عمل
ذو طبيعة مستقبلية، في بيئة سياسية غير مستقرة.
كما أنها رواية عابرة للزمنة بين ماضٍ قريب
ومستقبل خطر؛ لتتحدث عن نظام حاكم يعجز
عن مواجهة مشكلاته المتفاقمة، وعن تنظيم اخطبوطي
يمد أذرعه ليتحكم ببعض المفاصل من دون
أن يكون بوسع أحد أن يطلّاه أو أن ينال منه شيئا.
وهو تنظيم إذا بدا ذا طبيعة متكتمة،
فإنه يستخدم وسائل "ماسونية" يحاول من
خلالها أن يستقطب "قيادات" قبل أن يقوم
بتوجيهها لتنفيذ مخططاته، من أجل أن يحكم.



آلاف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان

e-kutub.com

نُحَاوِيهِ الرِّفْعُ بِوَارِثَةٍ

مَكْتَبَةُ عَمَلِكُمْ

ask2pdf.blogspot.com

نحن لا نقوم بتصوير أو نسخ الكتب
نشر الكتب الموجودة بالفعل علي الإنترنت
نحترم حقوق الملكية
ولا نمانع حذف رابط أي كتاب
إذا طالب مؤلف أو دار نشره بحذفه